

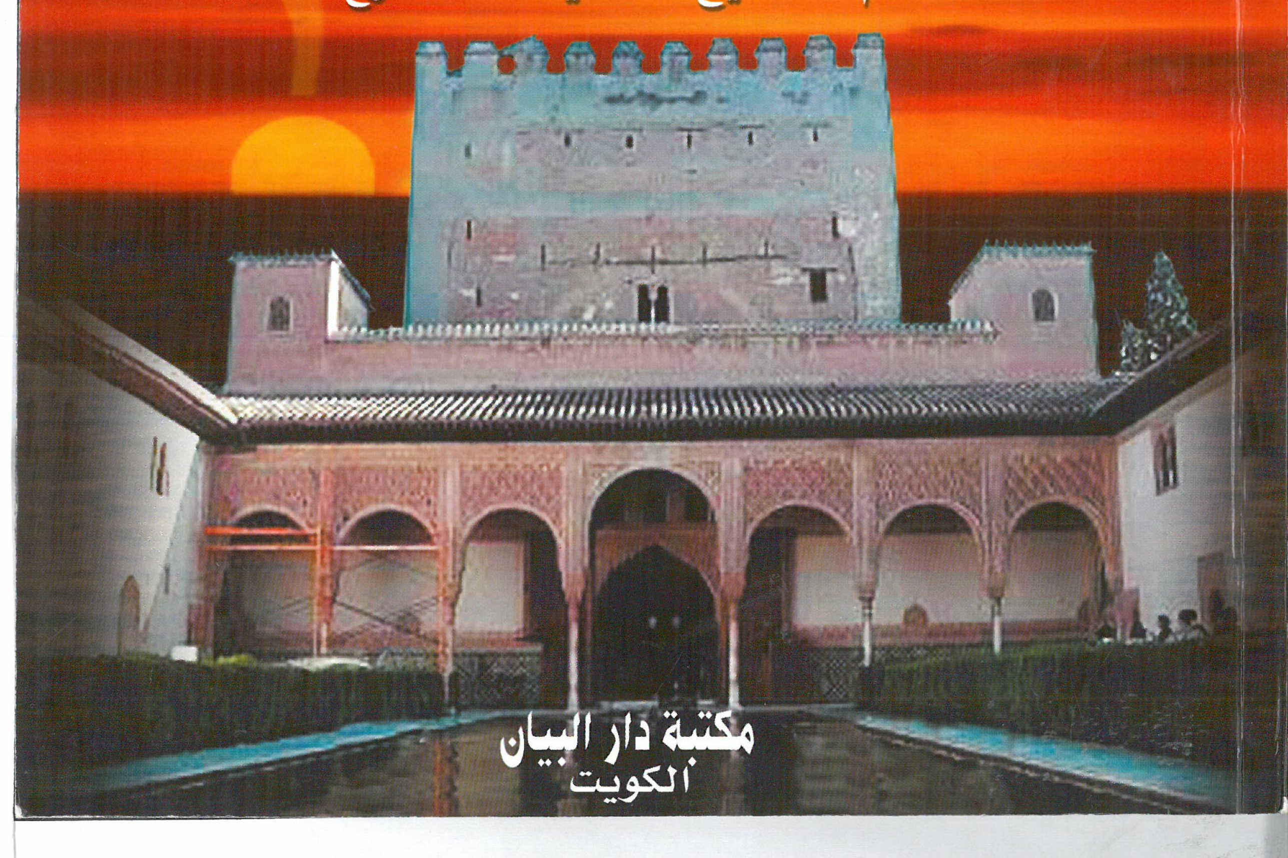
غربت شمس الإسلام عن الأندلس

((دراسة تحليلية هادفة في ضوء التاريخ والواقع المعاصر))

تأليف

أ.د. أبو النور أحمد الزعبي

قدم له الشيخ د. السيد محمد نوح



مكتبة دار البيان

الكويت

لماذا غربت
شمس الإسلام عن الأندلس

«دراسة تحليلية هادفة في ضوء التاريخ والواقع المعاصر»

تاليف

الدكتور أبو النور أحمد الزعبي

كلية التربية الأساسية

الكويت

مكتبة دار البيان

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

نشر وتوزيع
مكتبة دار البيان
للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت - حولي شارع المثنى قرب مطعم الجولان
هاتف وفاكس : ٢٦١٦٤٩٠
ص .ب ٧٠٩٧ حولي - الرمز البريدي 32091

هذا الكتاب

جاء هذا الكتاب تقريراً كاملاً يبحث في أسباب سقوط الأندلس وغروب شمس الإسلام عنها بعد أن شيَّد المسلمون فيها حضارةً استمرت ثمانية قرون ، لولاها لظلّت أوروبا تسبح في بحار جهلها .

وقد كُتب هذا البحثُ ليكون تبصرةً للأمة الإسلامية في زمنٍ تحالفت فيه قوى الكفر لضرب الأمة الإسلامية والسيطرة على ممتلكاتها وخيراتها ، وطمس هويتها وانتمائها الإسلامي .

يقول الداعية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله :

«إني أنظر الآن ، فأجد أنَّ المسلمين تنزل بهم النكبات التي تَقْصُمُ الظهر ثم تنتهي بغير شيءٍ ! لم؟ مأساة الأندلس التعليق عليها قصيدة :

لكلّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

هل هذا هو التعليق؟ أين تعليقُ العلماء والأمراء والساسة والقادة ، والنظر في هذا كلّه نظرة فيها محاسبة للنفس؟ . .إذا أفلست شركة مثلاً فإنَّ التقرير يوضعَ عن أسباب الإفلاس ، فكيف لم توضع أيُّ تقارير عن فساد الأمة الإسلامية الذي أدّى إلى هزيمتها في الأندلس» .

أسأل الله عزوجل أن تكون هذه الدراسةُ عاصماً من السقوط لأمتي المجيدة التي ملكَتْ الدنيا من مشرقها إلى مغربها عندما قام الأجدادُ بنشر دين الله في أرجاء المعمورة حُبّاً وإخلاصاً لدنيهم ، وإشفاقاً على البشرية من نار الأخرة .

شكر وتقدير

الحمدلله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وكرمه وإحسانه ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم أجمعين .

وبعد :

فإني أتقدمُ بجزيل الشكر والامتنان والدعاء لأخي الصديق المفضال السيد/ أبي منذر حفظه الله ورعاه الذي تكرَّم وتفضَّل بطبع هذا الكتاب حُـبّاً في نشر العلم والدعوة ، ورغبة في تحصيل الأجر والثواب من الله تعالى .

فالله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وذخراً له يوم لاينفع مال ولا بنون ، وأن يعطيه العمر المديد مع وافر الصحة والعافية له ولأبنائه .

تقديم

صاحب الفضيلة العلامة الأستاذ الدكتور السيد محمد نوح

أستاذ التفسير والحديث في جامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مضت سنة الله عز وجل أن تكون الأمة المسلمة خاتمة الأمم ، وأن يكون نبيها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

وقال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ (الأحزاب : من الآية ٤٠)

وإذا كانت هذه الأمة آخر الأمم ، وكان نبيها خاتم الأنبياء والمرسلين فإن على هذه الأمة مسئولية إصلاح نفسها ، وإصلاح الآخرين والأخذ بأيديهم إلى صراط العزيز الحميد ، وهذا ما سجله الله في كتابه في قوله سبحانه : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (البقرة : من الآية١٤٣) .

وإذا اعترى الأمة ضعف أو عجز في بعض مراحل حياتها ، وإذا زحزحت عن مركز الإمامة ، والقيادة لسبب أو لآخر فإن ذلك يكون دواء لدائها ، وتطبيباً لعلتها ، ثم تعود إلى أداء المهمة التي من أجلها أخرجت للناس إخراجاً ، وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم .

قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (النور :٥٥) .

وتتم هذه العودة بجهود وعطاء هذه الفئة الظاهرة بالحق التي لايضرها من خالفها ، أو خذلها حتى يأتي أمر الله وهي كذلك ، والأستاذ الدكتور أبو النور أحمد الزعبي بارك الله وأحسن إليه واحد من هذه الفئة الظاهرة راعه وأفزعه الواقع الأليم المرير الذي تعيشه الأمة ، فانبرى مؤدياً واجبه نحو إيقاظها لأداء دورها ، والقيام بواجبها بعد أن تتحرر من هذا الواقع الأليم ، وقد سلك مسلكاً جميلاً وجديداً وصولاً إلى هذا الغرض ، وتحقيقاً لهذا الهدف .

هذا المسلك هو البحث عن الأسباب التي أدت إلى غروب شمس الإسلام عن الأندلس بعد أن عاش فيها بضعة قرون من الزمان صنع حضارة زاهية بعثت أوروبا من مواتها حتى صنعت نهضتها العلمية التي تدل بها على الناس اليوم ، وبقيت آثارها هناك شاهدة عليها . وقد اقتضت منهجية البحث :

تصوير الظروف والأسباب التي أدت إلى وصول الإسلام إلى الأندلس وبيان المنجزات التي قام بها المسلمون هناك ، ثم عاد يصور انكسار الخط البيأني للمسلمين هناك والأسباب التي أدت إلى ذلك ، والآثار التي أعقبت انتهاء العصر الإسلامي في الأندلس ، وما صنعته الصليبية الحاقدة في ملاحقة الإسلام والمسلمين هناك فيما يعرف بمحاكم التفتيش مقارناً ذلك بصنع المسلمين عند فتح هذا البلاد واحترام حضارتها التي كانت تعيشها قبل الإسلام ، وهو بهذا كشف تعصب هؤلاء الحاقدين في مقابل تسامح المسلمين وعدالتهم وفضلهم .

وأحسب أن الدكتور أبا النور الزعبي استطاع بهذا التصوير والبيان لفت النظر إلى الأسباب التي أدت إلى تدهور حال الأمة اليوم والآثار التي ترتب على ذلك ، وسبيل الخلاص ، بل الوقاية من تكرار هذه الحال لتشابه وضع الأمة اليوم بوضعها في نهاية أيامها بالأندلس .

وفق الله الدكتور أبا النور ، وأجزل له العطاء ، وكتب له حسن المثوبة والعقبى ، إنه ولي ذلك ، والقادر عليه ، هذا وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين .

وكتبه : أ . د/ السيد محمد نوح

الكويت ٢٦ من ربيع الأول ١٤٢٤ هـ - ٣١ من مايو ٢٠٠٣م

رئيس قسم التفسير والحديث في جامعة الكويت سابقاً

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وبعد ؛

فإنَّ الله أنزل كتابه الخالد على قلب نبيه محمد ﷺ ليحفظ للأمة دينها وعقيدتها وشريعتها ، وقد جاء القرآن مفصَّلاً فيه كل شيء من عقيدة وعبادة ، وقصص وأخبار ، وتشريعٍ وتنظيم في الأسرة والمجتمع والدولة .

وقد فهم السلف كتابهم العظيم غير فهمنا اليوم ، فكان فهمهم حفظاً وعملاً وتطبيقاً في حياتهم ، وكانوا مرآةً منعكسةً فيها آياتُ القرآن ، وكانوا مهتمين به في جوانب حياتهم ، بل لم يكن هناك فصلٌ بين القرآن وبين سلوكياتهم .

أما اليوم فقد تناسى بعضُ المسلمين كتابهم ، فأقاموا ألفاظه وحروفه دون الوقوف على معانيه وأهدافه ومقاصده ، لذلك أُصيبوا بانحسار في حياتهم اليومية ، وتخلف في نواحي الحياة كلِّها ، وأصبحت حياتُهم الرتيبة خاليةً عن كلِّ إبداع واهتمامٍ ، فغلب عليها الكسل وعدم الحركة لنصرة الدين .

وفي الجوانب المادية وإعداد النفوس إعداداً قوياً كان المسلمون متأخرين في هذا الأمر ، وقد أنزل الله عليهم قرآنهم يأمرهم بإعداد أنفسهم قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[1] ، ويملكون سلاحاً مادياً يحسدون عليه - البترول - مما يجعلهم أمةً قويةً تملك قرارها بيدها ، ولكن لم يُحسن استعمال هذا السلاح ، بل استعمل في رفاهية حياتهم من متعٍ وبطر ، ولهو ولعب دون أن تستفيد الأمة من إنشاء مصانع للأسلحة لتحمي عقيدتَها ، وتذود عنَّ

---

(١) الأنفال آية ٦٠ .

بلادها كيد الكائدين ، ويكون تحدياً لعدوها الأكبر من اليهود وغيرهم الذين يسارعون في إنشاء مصانع للأسلحة ، حتى أصبحوا اليوم يُهددون البشرية عامة والأمة العربية خاصة بامتلاكهم القنبلة النووية .

إنَّ المتأمل اليوم في حال المسلمين يشهد تخلفاً في ميادين حياتهم من الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وتخلفهم في شتى الميادين ليس طيناً لازباً عليهم ، ولكن جاء بما كسبته أيديهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[1] . وسرُّ هذا التخلف جاء نتيجة تقصير المسلمين ، ولم يكن التقصير في سنة واحدة ، ولكن جاء عبر عقود زمنية متعددة ، اجتمعت وتراكمت حتىَّ أحدثت انحرافاً زائداً .

والعجيب أننا تعرضنا لمصائب متكررة ، وأخطار جسمية ، ولكن لم نعتبر ونتعظ من هذه الأخطار ، بل لم توقظ هذه المصّائب حسَّنا وغفلتنا ، وبقيت الأمة اليوم في غفلتها وضياعها ، وكأن حسَّنا تبلّد وتخدر ، بل أين نحن من قول رسول الله ﷺ : «لايُلْدغُ المؤمنُ من جُحر مرتين»[2] .

لقد ذُكرت حضارات في القرآن الكريم مثل حضارة فرعون وثمود وقوم لوط ، وقوم نوح ، وقصَّها الله على نبيه ﷺ لأخذ العبرة والعظة ، قال تعالى : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[3] ، ثم تعرضت لسننه الإلهية ونواميسه الأزلية ، فمرَّت بطور الضعف ثم القوة والاستعلاء ، ثم ضعفت وتلاشت حتى سقطت ، فصارت ذكراً على الألسن ، وكان من

---

(١) سورة الشورى آية : ٣٠

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب رقم ٣٩٨٣ ، سنن ابن ماجه ١/ ٢٨٧ .

(٣) سورة هود آية ١٢٠ .

المفروض أن نقف على الحضارات الزائلة وندرسَ أسباب سقوطها لنكون في حذر ومناعة ، لاسيما أنها ذكرت في القرآن .

وقد تعرضت الأمة الإسلامية عبر تاريخها المجيد إلى سلسلة من المصائب والفتن ، بدأت بالحملات الصليبية واحتلال المسجد الأقصى ما يزيد على تسعين عاماً ، ثم هجوم المغول والتتار وسقوط الخلافة الإسلامية ، ثم سقوط الأندلس في أطراف الدولة الإسلامية ، ثم سقوط الخلافة العثمانية في العصر الحديث ، وتقسيم العالم الإسلامي بين دول النصارى ، وانتهت بسلخ فلسطين ومسرى رسول الله ﷺ وإقامة دولة إسرائيل فوق جسد الأمة الإسلامية .

ولم تكن هذه المصائب والكوارث إلا نتيجة عوامل داخلية كانت تنخر بجسد الأمة حتى انتهت إلى الوضع الذي وصلت إليه آنفاً ، ومن أوتي حظاً من العلم والفهم والمعرفة يستطيع أن يعرف مصير الأمة من غير نبوة أو كهانة أو سحر أو غير ذلك ، وكأنه يقرأ في كتاب يطالع الأحداث حدثاً حدثاً ، ولم تكن هذه النكبات والمصائب حدثاً مفاجئاً كنزول الصاعقة من غير أن يسبقها نذير ، بل كانت حلقات متصلةً فيما بينها تحكي الأوضاع الفاسدة والانحرافات البائنة ، والعادات الجاهلية في قلوب الناس .

ومما يجدر التنبه إليه أنَّ الأمة ولله الحمد والمنة بقيت واقفة تثبت وجودها وكيانها ، ولو صُبَّت مثل هذه المحن والفتن على مذهب من المذاهب الوضعية أو دعوة من دعوات البشر لأصبحت أثراً بعد عين ، ذلك ليعلم المسلمون أن دينهم محفوظ من عنده سبحانه وتعالى ، ﴿ **يريدونَ أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِمْ ويَأْبى اللَّهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نورَهُ ولَوْ كرِهَ الْكافِرُونَ** ﴾[1] .

ولو وُجد لهذا الدين عبر تاريخيه إلى يومنا هذا قيادة أمينة تقدم مصلحة الدين على مصلحتها الذاتية لما رأينا شقاوة البشرية في مستنقع غيها وفجورها .

---

(١) التوبة آية ٣٢ .

ولقد أتى حينٌ من الزمان اتسعت فيه دولة الإسلام حتى وصلت إلى حدود الصين شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباً ، وكان خليفة المسلمين يُصدر أمراً في دمشق فتستجيب له آذان المسلمين في الأندلس طاعةً وسماعاً دون تردد أو تمرد ، وكان أعداء المسلمين ينظرون نظرة إعجاب وإكبار إلى حضارة المسلمين .

ولما انحسر الإسلام سياسياً في العالم ، تعرضت أطراف دولته لضياع وزوال ، وكان من أعظم هذه المصائب ضياع الأندلس وسقوطها في يد النصارى .

لقد خسر المسلمون أندلسهم يوم أن لم يكن هناك «تلفاز» أو صحيفة ومذياع ، أو قناة فضائية تنقل صور المآسي والفضائح التي تعرض لها المسلمون ، واليوم أُخذ مسرى رسول الله ﷺ على مرأى من المسلمين ، ونقلت وسائل إعلامنا المسموعة والمرئية مآسي المسلمين مما يُدمي القلب ويبكي العين .

ولعلَّ الصور تتشابه في جوانب كثيرة من فقد الأندلس وضياع فلسطين ، والتاريخ يعيد الحكاية نفسها ربما تتشابه في جوانب وتختلف في أخرى ، وها أنا أكتب لأمتي هذه الصفحات «**لماذا غربت شمس الإسلام عن الأندلس**»[1] لتكون تقريراً يُقدَّم عن أسباب غروب حضارة الإسلام فيها ، فالشركة التجارية إذا أفلست تُقدِّم تقريراً عن سبب إفلاسها ، فلماذا لا يُقدَّم تقرير عن فساد الأمة في بلاد الأندلس حتى أدَّى ذلك إلى انحسار الإسلام عنها ، ولتنتبه الأمة من أمراضها التي تنخر جسدها قبل أن تعضَّ أصابع الندم حسرةً على ما فرطت ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾[2] ، وقبل أن تخسر بقية

---

(١) لقد قدمتُ هذا الكتاب على شكل حلقات في إذاعة القرآن الكريم في دولة الكويت في شهر رمضان عام ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م ، وقد بلغت ثلاثين حلقة ، ولقيت قبولاً واسعاً ولله الحمد والمنة ؛ ثم قامت مجلة النور الكويتية ونشرت الكتاب على صفحاتها في كل شهر مقال ، فالحمدلله أولاً وآخراً .

(٢) الزمر آية ٥٦ .

بلادها ، فيسلط الله عليها عدوها فيستحل بيضتها ، ويقتلع شوكتها .

فعسى ولعلَّ تكون نذيراً لمن له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ، فكفانا جراحاً وكفانا آهات ، وكفانا ضياعاً ولهواً ولعباً ورقصاً على دماء شهدائنا وزفرات أراملنا ، فآنَ الآوان كي نشمر عن سواعدنا ونقدم للأمة ما يكون مفخرة لها بين الأمم ، فإنها بحاجة إلى أبنائها ليرفعوا جبينها كما فعل أسلافنا من قبل .

إنَّ ما يقال عن أسباب سقوط الأندلس يقال عن أسباب ضياع فلسطين ومسرى رسول الله ﷺ ، ويقال أيضاً في كل بقعة ومدينة يُهدد فيها المسلمون وقد تختلف الأسباب قليلاً ولكن التشابه أكثر ، فلنحذر مَن عدونا .

سبب هذا الكتاب :

كان هذا الكتاب محبوساً في صدري وذهني سنوات عديدة ، فمنذ أن كنت مدرساً أنوء بأعباء وثقل التدريس[1] ، كان لدي ساعات فراغ في جدولي التدريسي ، وكنت أهرب من عناء وصخب الطلاب إلى المكتبة العامرة ، فأشعر بالهدوء والارتياح النفسي والسلوان لقلبي ، فأعيش بين جنبات تراثنا العلمي هادئاً مطمئناً معجباً بما فيه من جهد علمائنا الأولين .

وكنت كثيراً ما أُحبّ قراءة كتب التاريخ لأخذ العبرة والعظة ، وأكثر ما أُحبُّ قراءته تاريخ المسلمين في الأندلس ، فأقف معجباً بحضارة آبائنا وأجدادنا ، فيحلق خيالي ليقطع آلاف الأميال ليشهد حضارة أمة تعبت في بناء مجدها التليد .

لقد قرأت كتاباً[2] لشيخنا الداعية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، ذكر فيه تكاسل المسلمين وتقاعسهم وخمولهم لعدم قيام أحد منهم بتأليف

---

(١) كان ذلك في ثانوية الفلاح في محافظة جدة من المملكة العربية السعودية ، وقد درست فيها اثني عشر عاماً ، وتخرج طيلة هذه المدة كوكبة من طلبة مجدين قد تبوأوا مراكزهامة في البلاد ، وكانت مكتبتها من المكاتب الأثرية ، ففيها مايزيد على تسعة آلاف مجلد .

(٢) كتاب : كيف نتعامل مع القرآن .

كتاب مختصر مفيد يجمع فيه أسباب فقد المسلمين للأندلس لأخذ العبرة في حياتهم ، فأخذت الخواطر تتزاحم في ذهني ، فجمعت المادة العلمية بعد قراءة طويلة في كتب التاريخ التي ذكرت مجد المسلمين من غير تفصيل وتحليل لأسبّاب السقوط .

إنَّ الهندوس في الهند يستعدون لمثل ما فعله النصارى في الأندلس ، فقد حشدوا طاقاتهم واستعملوا كل شيء من تخطيط ودراسة وتحليل ليزيلوا المسلمين من الهند ، ولانعجب إذا قلنا إنَّ اليهود أنشأوا قسماً خاصاً في جامعاتهم لتدريس أبنائهم أسباب سقوط الأندلس في يد النصارى ، وذلك ليكونوا في حذر مما حدث ، فتحفظ الدولة كيانها وبقاءها .

أليس المسلمون أولى بمثل هذه الدراسات ، لماذا ننام وغيرنا يفكر ، ولماذا يصيبنا الخمول والكسل وغيرنا يعمل وينشط؟ .

قال تعالى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾[٢] .

أسأل الله أنْ أكون قد وفقتُ في هذه الدراسة التي وضَّحتُ فيها أسباب السقوط ، كما أسأل الله أن يُبرِّد مرقد الداعية الشيخ محمد الغزالي ، وأن يُمطره شآبيب رحمته ، وأن يكون هذا السِّفر مُحقِّقاً لأمنيته التي تمناها قبل مماته ، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين .

كتبه د . أحمد الزعبي

الكويت

٧ ذي الحجة ١٤٢٣ هـ الموافق ٨/ ٢/ ٢٠٠٣

---

(١) النجم آية ٥٦ - ٦١ .

الباب الأول

أهمية الحضارة الإسلامية

ويشمل عدة فصول :

الفصل الأول : عالمية الإسلام .

الفصل الثاني : حضارة المسلمين المشرقة وواقعهم المؤسف .

الفصل الثالث : الفتح الإسلامي للأندلس .

الفصل الرابع : أثر الحضارة الإسلامية الأندلسية على أوروبا .

الفصل الخامس : من القمة الشامخة إلى السقوط السحيق .

الفصل الأول

عالمية الإسلام

بُعث النبي ﷺ إلى الناس جميعاً عرباً وعجماً ، وجُعلت رسالته ناسخة لكل الرسائل السماوية ، فلانبي بعده ، ولادين إلا دينه .

وقد انطلقت دعوته من مكة ، وبنى دولته في المدينة ، ثم تألّقت حتى جاوزت المكان والزمان فشرّقت وغرّبت في العالم كلّه ، قال النبي ﷺ : «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار ، ولن يبقى أهلُ مدر ولاوبر إلا دخلوا في الإسلام بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل ، عزّاً يُعزُّ الله به الإسلامَ وذلاً يُذل الله به الكفر» ، وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخيرُ والشرفُ والعزُّ ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلُّ والصغارُ والجزيةُ[1] .

وقال أيضاً : «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإنَّ ملك أمتي سيبلغ ما زُوِيَ لي منها»[2] .

إنَّ حضارة الإسلام هي الحضارة المهيمنة والمرشحة لتكون الحضارة السائدة في العالم كلّه ، وإنَّ الدين الإسلامي هو الدين الذي استطاع ويستطيع أن يعايش الناس ، مع انضمامهم تحت لوائه على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم .

لقد أتى حينٌ من الزمان كانت أمة الإسلام سائدة على الأمم كلها ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن برقم ٥١٤٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٦٣٤٤ .

حيث تسلمت مفاتيح العالم ، وعزلت الأمم المريضة ، وسيحدث هذا مرة أخرى عندما تكون حياة المسلمين ومماتهم لهذا الدين .

لذلك مهما وجدت من حضارات فمآلها إلى الزوال والانتهاء لأنها فقدت أسباب البقاء ، إلا حضارة الإسلام المستمدة عناصر بقائها من الحي الذي لايحول ولايزول .

لقد جرَّب العالم اليوم حضارتين كبيرتين : حضارة الغرب المتمثلة بالرأسمالية ، والحضارة الشيوعية المتمثلة بالقضاء على الملكية والحرب على الدين ، وقامت بين البشرية حروب طاحنة ، حيث اندلعت حربان عالميتان ذهب ضحيتهما أكثر من ثلاثين مليون إنسان ، وبرز من ذلك تقسيم العالم بين دول عظمى خرجت تزهو بنصرها وكبريائها .

وإنَّ القرن المنصرم هو أكثر القرون إراقة للدماء رغم تقدم البشرية في وسائل العلوم والصناعات والرفاهية في حياتها ، وكان من المفروض أن تكون هذه النهضة مؤثرة في وعي الشعوب وتقدمها ورقيها ، ولكن كانت علومهم سطحية ، قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[1] ، فلا يملكون تصوراً صحيحاً لحياتهم ، بل بقي علمهم ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لايعرفون إلا الجشع والقوة والجبروت والاستعلاء في الأرض ، لاحياة إلا للقوي ، ولابقاء على الأرض إلا لمن يملك القوة والمال .

كانت مهمة الرسول ﷺ تبليغ الدين للأمم الضائعة في دياجير

(١) الآية ٧ من سورة الروم .

الظلام ، فلاسعادة للإنسان إلا بمعرفة ربه والتمسك بهديه ، وبيّن مهمته بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾[1] .

لم يكن النبي ﷺ مُرْغِماً أحداً على الدين ، ولامُبغِضاً لدينٍ سماوي من قبل ، بل كان حليماً في بيان الدين وعرضه للناس ، وتحدثنا السيرة أنَّ سفانة بنت حاتم الطائي كانت على دين ، وقد وقعت أسيرة ، ومرَّ بها الرسول ﷺ وهي واقفة أمام مسجده ، فقالت : يارسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن منَّ الله عليك ، إنَّ أبي كان يطعم الجائع ، ويكسو العاري .

قال لها : من أنت؟

قالت : أنا سفانةُ بنت حاتم الطائي .

فأمر بفكِّ أسرها ، وأعطاها هدايا ، وانطلقت إلى قومها فرحةً بخلق النبي ﷺ وسماحة الإسلام ، وقالت : شكرتك يدٌ افتقرت بعد غنى ، ولاملكتك يدٌ استغنت بعد فقر ، وأصاب الله معروفك مواضِعَه ، ولاسلب نعمة كريم إلا كنتَ سبباً في ردِّها .

وقد ذهبت إلى بلاد الشام لتأتي بأخيها عدي بن حاتم الذي لحق بإخوانه النصارى هناك ، وأشارت إليه أن يقدم على رسول الله ﷺ ، فجاء إلى المدينة حتى وصل المسجد ، فقال الرسول ﷺ : من الرجل؟ قال : عدي بن حاتم الطائي ، فقال : ياعدي أسلمْ تسلم ، قال : إني على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك .

---

(١) الآية ٤٥ - ٤٦ من سورة الأحزاب .

قال : ألست ركوسياً[١] ، وأنت تأكل مرباع قومك ، قال : بلى ، قال : هذا لايحل لك في دينك ، قلت : نعم ، ثم قال : لعلك ياعدي إنما يمنعك من دخولك هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لايوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت .

ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه أنك ترى أنَّ المال والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم[٢] .

كانت بشارات نابعة من مشكاة النبوة ، وحال المسلمين في ضعف ، فالدولة لم تكن قويةً بعد ، وهي لاتشكل شيئاً أمام الدولتين العظمتين ، ولكن الله قادر على نشر دينه ولو كره الكافرون ، وها هي الأيام تمر فقد أسلم عدي وشارك في فتح فارس ، ورأى القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، ورأى المرأة تخرج من أقاصي البلاد وهي آمنة ، وكان يقول : وايم الله لتكوننَّ الثالثة[٣] .

انطلق صحابة رسول الله ﷺ سفراء للعالم ، يحملون دين الله مبلغين الأمانة ، امتثالاً بأمر الله وخوفاً على البشرية الغارقة في مستنقع الكفر ،

---

(١) الركوسية : دين بين النصارى والصابئة ، والمرباع ربع الغنيمة ، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٥٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٤٤٣ ، السيرة النبوية د/ محمد أبوشهبة ٢/ ٥٤٩ .

(٣) وقد تمت البشارة الثالثة في عهد عمر بن عبدالعزيز عندما فاض المال بين المسلمين ، فلم يجد الأغنياء فقيراً يأخذ زكاة أموالهم .

ولذلك فتحت البلاد أمامهم بقوة إيمانهم وعقيدتهم ، وهزموا دولتين عظيمتين كانتا تتحكمان بمصير البشرية .

كانت البلاد بحاجة إلى دينٍ صحيح تشعر البشرية فيه بأمن وعدل ومساواة ، وقد فشلت اليهودية كدين ، وذلك بسبب الانحرافات التي طرأت عليها فبدّلت وغيرت ، حيث أسرفت في مادية بلا روحانية ، وأما النصرانية فقد أسرفت في روحانية بلا مادية ، والبشرية تحتاج إلى مادية تحرسها الروحانية ، وهي الوسطية بين المادية والروحانية ، فجاء الإسلام بوسطيته في الأمور كلها متمثلاً ببعثة الرسول ﷺ .

ولما انطلق الفاتحون المسلمون يحملون رسالتهم لهداية الإنسانية رحّبت البشرية بهم ، وعندما دخلوا البلاد المحكومة بالنصرانية ، قال لهم أهلها : جئتم لتخلصونا من اضطهاد إخواننا النصارى .

وعندما اتسعت الخلافة العثمانية وقويت شوكتها دخل الفاتحون المسلمون أوروبا ، فأرسلت دولة المجر إلى السلطان أحمد الأول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم النمسا المسيحية[١] .

يقول أرنولد : ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، عسكر أبوعبيدة عامر بن الجراح ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب المسلمين يقولون : يامعشر المسلمين أنتم أحبُّ إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا[٢] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٥٧ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٦٦-٦٨ أرنولد .

إنَّ الدين الإسلامي أثبت للبشرية كيف عاشت تحت حمايته ، فشعرت بالعدل والمساواة والحرية على اختلاف أجناسها وأديانها ، فأمنت على أرواحها وأموالها وأعراضها .

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيخاً نصرانياً في الطريق أقعدته الأيام يحمل كيساً ثقيلاً على ظهره ليدفع الجزية للدولة المسلمة مقابل حمايته ، فقال : لِمَ هذا أيها الرجل ، قال : لأجل الجزية يا أمير المؤمنين .

فقال لأصحابه : أعطوه من مال بيت المسلمين ، أخذتم منه قوياً وتركتموه ضعيفاً .

ومما يُروى أيضاً أن الجيوش الإسلامية المعدة لفتح العراق كانت قد جمعت الجزية من سكان المناطق الجنوبية لحدود ما بين النهرين ، وقد صدرت إليها الأوامر لتؤازر جيوش الشام ، وكان من هذه الجيوش أن أعادت الجزية إلى سكان البلاد على اعتبار أنها لاتستطيع أن تحافظ عليهم وتحميهم مدة عام .

وهذا من عدل الإسلام وسماحته مع الأجناس الأخرى ، فهو يأخذ الجزية مقابل حمايتهم وتأمينهم من عدوهم .

نعمة الإسلام

إنَّ أعظم منَّة ونعمة امتن الله بها على البلاد والعباد دخولها في الإسلام ، حيث نظَّم حياتها وشؤونها الاجتماعية ، وعلَّم البشرية لأي شيء خُلقت .

وعندما حكمها وتفيأت تحت ظله ، شعرت بذلك الإيمان الذي استقر

في قلبها فنقلها نقلة كبيرة ، وأحدث فيها انقلاباً وتحولاً في نظم حياتها .

كانت البلادُ خاليةً من الإبداع ، فأقفلت العقول ، ونامت القلوب ، وغدا الإنسان كحيوان يأكل وينام ، ثم يموت ويدفن ذكره من غير معرفة سبب وجوده في الدنيا ، وعندما جاء الإسلام دمغ الباطل وهزم الكفر ، وولّى الظلم والقهر والاستبداد بلارجعة ، وبسطت دولة الإسلام من دمشق إلى سمرقند شرقاً وإلى الأندلس غرباً .

لم يُعرف في تاريخ البشرية منذ دخول الإسلام في بلادها أنه قهر شعباً وأجبره على دخول الإسلام فيه ، بل كانت دعوته بينة قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] ، وشجَّع على الاستزادة من العلم والإبداع مهما كان مصدره سواء من قبل النصارى أو اليهود ، بل بحث وشحذ الهمم بقوله : «الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»[2] ، وشعرت البشرية بعدالة الإسلام وسمو تشريعه ، فحصلت على حقوقها سواء دخلت فيه أو بقيت محكومة تحت تشريعه ، وكان الواحد يقطع المسافات الطويلة ليقابل الخليفة فيذكر مظلمته من غير تحفظ ، فيجد العدل والمساواة ، وليست قصة القبطي مع ابن عمرو بن العاص ببعيدة ، وسمع الزمان كلمة العدل : «متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتُهم أحراراً» .

لقد مُلئت صفحات التاريخ بأبشع صور التعذيب والقتل عندما طرد النصارى المسلمين من الأندلس ، وأقاموا محاكمهم الهمجية لتصفية المسلمين بإشراف رجال دينهم ، وتناسوا بذلك عدل الإسلام وسماحته

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي باب العلم برقم ٢٦١١ .

عندما عاشوا تحت كنفه .

حكمنا فكان العدلُ منّا سجيّة ... ولما حكمتم سال بالدم أبطحُ

فحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكلٌّ إناءٍ بالذي فيه يَنضحُ

وليس أدل على بشاعتهم ما حدث اليوم في البوسنة والهرسك الذي أخرج الأحقاد من قلوبهم في عصر تدعو فيه الإنسانية إلى التسامح والمحبة والسلام .

إنَّ الفتوحات التي قام بها المسلمون ليست حملات ضد ديانة من الديانات السماوية من قبل ، بل كانت فتوحات لبلاد وشعوب عانت من الظلم والاضطهاد والقهر والإذلال ، وكانت وصية الخلفاء الراشدين ومن بعدهم متمثلة بقول رسول الله ﷺ : «اغزوا باسم الله ، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلاتتعرضوا لهم ، ولاتقتلوا امرأة ، ولاصغيراً ، ولا شيخاً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولاتهدموا بناء»[1] .

إنها وصيةٌ تحمل الرقة والعطف بالإنسانية والشفقة والرحمة بالحيوان أما عصرنا المتحضر اليوم الذي تحكم فيها قوى البغي والطغيان والاستبداد عندما يغزو بلداً يدمر شعبها ويقتل أطفالها ، ثم بعدها يُقدِّم اعتذاراً عما حدث ، وتنتهي المشكلة بدماء وقتل وزهق أرواح الأطفال والشيوخ والنساء .

فإما الدخول في الإسلام واعتناق عقيدته ، لأنه ناسخ لجميع العقائد ، وإما الاستسلام والخضوع للإسلام ونظامه العام بعقد ذمة أو قبول جزية

(١) سنن أبي داود برقم ٢٦١٤ ، السيرة النبوية ٢/ ٤٢٦ .

يدفعونها للدولة الإسلامية مقابل حمايتهم .

قال تعالى : ﴿ **قَاتلُوا الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلا بالْيَوْمِ الآخرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغرُونَ** ﴾[1] .

وبذلك لايجوز ظلم المعاهد أو أهل الكتاب الذين خضعوا لقوانين الدولة الإسلامية ، وبين الرسول ﷺ حرمة ظلم المعاهد بقوله : «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه ، أو كلّفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شبراً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجُه يوم القيامة»[2] .

وأما حقد اليهود للإسلام والمسلمين فهو حقد قديم ، والسبب في ذلك حسدهم الذي تأصل في قلوبهم ، حيث كانوا متمنين أن يكون النبي المنتظر منهم ، ولكن الله خيب آمالهم ، لأنهم غير متأهلين لحمل رسالته ، فقد طغوا وبغوا وأفسدوا ، وقتلوا أنبياءهم فاستحقوا اللعنة إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كتَابٌ مِّنْ عند اللَّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا به فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافرينَ** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْد إيمَانكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عند أَنفُسهم مِّنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾[4] .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٢٥٧ .

(٣) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

الفصل الثاني

حضارة المسلمين المشرقة وواقعهم المؤسف

بُعث الرسول ﷺ مبلغاً عن ربه ، لا ليبني السدود وينشئ المصانع والمستشفيات ، ولكن جاء ليبني العقول ويصحح المفاهيم وهي بدورها ستبني السدود وتنشئ المصانع والمستشفيات في ضوء القيم والمبادئ الإسلامية ، وإن الحضارات لاتقاس بالأبنية الشاهقة ، والمصانع الواسعة ، ولكن تقاس بأخلاقها وهدايتها ومعرفة ربها ، وقد جاءت حضارات ومضت حضارات وولدت في التاريخ حضارات ولكن لم تبق حضارة من الحضارات الماضية بل كلها صارت أثراً بعد عين .

وبقيت حضارة الإسلام متألقة فوق الحضارات كلها لما تملكه من عقيدة صحيحة وغذاء روحي للجسد والروح معاً .

وقد شاهدنا اليوم حضارة الغرب تملك التفوق المادي والعلمي ، والنجاح الاقتصادي والعمراني ، والرقي والازدهار والرفاهية في الحياة ، ولكن أصبحت تعاني الخواء الروحي ، والانحدار في القيم والأخلاق ، والضوابط السلوكية المنحرفة ، ويلاحَظَ فيها ارتفاعٌ في معدلات الجريمة في مجتمعاتهم بشكل واضح لاينسجم مع تقدمهم المادي .

ظهر الإسلام في مكة وحورب بين شعابها وجبالها من القبائل العربية ، ولكن بعد مرور مائة عام وقفت الجيوش الإسلامية تحت أسوار مدينة باريس ، ووصل الدعاة شرقاً إلى الصين ، وسلموا رسالة من الخليفة إلى القيصر ، وأقاموا مسجداً في مقاطعة «كانتون» ما يزال قائماً إلى اليوم[1] .

---

(١) نهضة المسلمين وواقعنا المعاصر ، للرئيس علي عزت بيجوفتش ، مجلة المجتمع العدد ١١٠٦ ، ٢٦ محرم ١٤١٥هـ نهضة المسلمين .

وامتدت الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان وابنه الوليد من جبال بيريس غرباً حتى بلاد الصين شرقاً ، وعندما أخذ الإسلام ينحسر وتجف ينابيعه في بلاد الأندلس أمام همجية النصارى فاضت ينابيعه مرة أخرى في أوروبا الوسطى ، حيث وصلت جيوش السلطان محمد الفاتح القسطنطينية فتم فتحها وإقامة دولة الإسلام فيها .

بلغنا السماء بأنسابنا ... ولولا السماءُ لجزْنا السماء
فحسْبُكُ من سُؤود أننا ... بحُسْنِ البلاء كشفنا البلاء
إذا ذُكر الناسُ كُنا ملوكاً ... وكانوا عبيداً وكانوا إماء
يطيبُ الثناءُ لآبائنا ... وبذكرِ الرجل يطيب الثناء

ولم يكن هذا السؤدد إلا بكفاح آبائنا وأجدادنا ، وبعزم وصبر واعتزاز بدينهم وعقيدتهم ، فكانت حياتهم ومماتهم لهذا الدين ، لذلك مكّن الله لهم حتى فتحوا الدنيا .

نعم إنَّ الإسلام اليوم انحسر سياسياً بسبب ضعف وجهل المسلمين وانشغالهم بالحياة الدنيوية ، ولكن بقي كدين يمتد في العالم الإسلامي يشهد كل يوم دخول المئات فيه ، وبقي كدين فيه نظام متكامل ، مما جعل الغرب يأخذ بقوانينه وتشريعاته في حياتهم الأسرية .

النهضة العلمية :

دعى الإسلام إلى العلم والمعرفة ووقف مع العقل ، حيث نزلت أول آية فيها تمجيد العلم والمعرفة والقلم ، قال تعالى : ﴿ **اقْرأْ بِاسْمِ رَبّكَ الَّذي**

خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[١] .

وبينت الآيات مكانة العلم ودعت إلى الاستزادة منه ، قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢] ، وشيد المسلمون حضارات علمية ، ما تزال آثارها شامخة إلى يومنا هذا ، وشيدوا جامعات كبرى ، تُعدَّ جامعات أوروبا بنات اليوم بالنسبة لها :

ففي بغداد كانت عدة جامعات : مثل الجامعة النظامية ، التي أسست سنة ١٠٦٥م وكان يدرس فيها القرآن والفقه ، وعلم اللغة والآداب والتاريخ والرياضيات والكيمياء والفيزياء .

وبعد قيام الجامعة النظامية أسست الجامعة المستنصرية مركز العالم الإسلامي ، وكانت قصور الحكماء والأمراء تعجُّ بحلقات الشعراء ومجالس العلماء ، وقد بسط النظام الإسلامي تفوقه الحضاري على العالم قرابة خمسمائة سنة ، وذلك من سنة ٧٠٠-١٢٠٠م ، وأما الخلفاء فكان اهتمامهم بالعلم وصفاً لايبارى ، وكانت قصور هارون الرشيد منتدى أدبي وعلمي وحضاري ، وإنه لمن العار أن نرى هذا المجد التليد والحضارة الشامخة ، ثم نرى تخلف المسلمين اليوم في مجالات الحياة[٣] .

إننا نسمع ونرى كل يوم الاكتشافات العلمية والطبية ، بينما المؤسسات

---

(١) الآيات ١-٤ من سورة العلق .

(٢) الآية ١١ من سورة المجادلة .

(٣) نهضة المسلمين وواقعنا المعاصر ، للرئيس علي عزت بيجوفتش ، مجلة المجتمع العدد ١١٠٦ ، ٢٦ محرم ١٤١٥هـ نهضة المسلمين .

الإسلامية ليس لها حظ من هذه الاكتشافات ، إنَّ المسلمين اليوم تأخروا في جوانب كثيرة من الحياة ، وهم يملكون مقومات التقدم لاتملكها أمة من الأمم ، ولكن تخليهم عن عقيدتهم ودينهم أبعدهم عن قطار التقدم أشواطاً .

لقد استسلمت اليابان في الحرب العالمية الثانية ، وعاشت في عزلة بعد الكارثة التي حلّت بها ، ولكن بعد ثلاثين عاماً من كارثتها قامت وبنت حضارتها الصناعية الشامخة حتى استسلم لها العالم صناعياً ، وعلى الرغم من أن اليابان مساحتها ٢٨٥ ألف كم مربع ، وعدد سكانها ١٢٥ مليون ، وفيها كثافة سكانية عالية ، وطبيعة جغرافية معقدة ، فهي مجموعة من الجزر المترامية في المحيط يكثر فيها البراكين والأعاصير ، ولاتملك ثروات طبيعية مثل البترول أو المعادن الثمينة ، ولكنها قفزت قفزة علمية عالية ، اعترف لها العالم بتقدمها العلمي ، وفرضت صناعاتها عليه .

نحن لا نريد أن نفْرضَ وجودنا من خلال الصناعة والزراعة كحال اليابان ، ولكن نفرض وجودنا من خلال عقيدتنا وقرآننا الذي ارتضاه رب العالمين ديناً للبشرية كلها ، ولا ينبغي أن نكون عالةً على غيرنا في الصناعة والزراعة ، فالإسلام دعا إلى العمل في كل جوانب الحياة .

إنَّ الذلَّ والانهزام موجود في حياتنا فبدلاً من أن نعلّمَ أطفالنا على الحرية والإبداع وتقديم الآراء بحرية أصبحنا نعلمهم الذلَّ والخوف والقهر والإذلال دون أن نشعر .

ولنضرب مثالاً واقعاً في حياتنا : إنَّ الطفل في المدرسة إذا حدث بينه وبين أستاذه خلاف في الرأي ، فإنَّ الأب يتصرف تصرفاً سلبياً تجاه ابنه ، فتجده يعتب على ولده ويخوِّفه من نتائج اختلافه مع أستاذه مثل الرسوب

أو انتقام معلمه منه بأي لون من ألوان الانتقام كالدرجات أو غير ذلك .

هذا الموقف غرس في نفس الطفل الرضا بالذل والخوف ، وعدم إبداء الرأي مرةً أخرى ، فبدلاً من أن يكون حل الخلاف في دائرة المحبة والمودة والتفاهم إذا به يحله عن طريق الذل والخوف ، هذه دائرة صغيرة ، انتقلْ إلى دائرة أخرى أكبر وأوسع مثل دائرة المدير والموظف ، والوزير مع موظفيه ، وهكذا تجد أن المجتمع كله قائم على عدم تقبل الأعلى النصيحة من الأدنى ، والكل يدور في دائرة الخوف والرضا بالذل .

إنَّ أمة تربت على الذل والاستعباد غير قادرة على تحقيق نصر الله وتمكين شرعه ، قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾[1] . لماذا قال : أربعين سنة؟

إنَّ بني إسرائيل ألفُوا الذلَّ والاستعبادَ من فرعون وجبروته ، فضرب عليهم التيه في صحراء سيناء حتى ينقرض جيلهم جيل الذل والاستعباد ، فيأتي جيلُ الحرية والكرامة فيصنع حضارةً ومجداً ، ولذلك لم يُربَّ موسى في بيت بني إسرائيل ، بل رُبي في قصور الملوك ، لأنَّ حياتهم بعيدةٌ عن الذل والخوف ، بل كانت حياة الحرية ، فيستطيع موسى أن يقوم للمهمة الكبرى في تحدي أقوى مملكة في عصره المتمثلة بفرعون وجنده .

يقول ابن خلدون :

«إنَّ حكمة التيه الذي وقع على بني إسرائيل ، وأنَّ المقصود بالأربعين ، فيه فناء جيل الأحياء ، ونشأة جيل آخر لم يعهد الذل»[2] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة المائدة .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٥٩ .

ليس المقصود من ذكر النهضة العلمية التي بناها أجدادنا قديماً البكاء على الماضي أو التغني بذكر الأمجاد ، بل لتكون دافعاً قوياً لكل مسلم بأنْ يُعيد بناء نفسه ، فإنَّ الأمة بحاجة إلى الإبداع في أمور الحياة كلها :

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلبْ قليلاً من المالِ
ولكنني أسعى لمجدٍ مُؤثَّلٍ وقد يُدرك المجدَ المؤثل أمثالي

لا يُقصد من ذكر أمجاد الآباء والأجداد الهروب من مشاكل الحياة في وقتنا الحاضر ، ولكن المقصود منه أننا أمة تستحق الحياة ، وتستطيع أن تعود لتملك مفاتيح العالم وتسود على الأمم بما سادته من قبل .

لقد قام المضللون المرجفون من أبنا جلدتنا بعد تحصيلهم العلمي بفتحٍ عقولهم لعادات وتقاليد الغرب ، فعادوا نسخاً بشرية تحاكيهم في بلادنا ، زاعمين أنَّ سبب تأخرنا في مجالات الحياة وتخلفنا اليوم إنما بسبب ديننا كما حدث لأوربا .

هناك فرقٌ بين الإسلام والكنيسة ، فالكنيسة فرضت تعاليمها بمحاربة العلم والإبداع - أطفئ سراج عقلك واتبعني - وحكمت على علماء ومفكرين بالقتل لوقوفهم في وجه الكنيسة مثل غاليلو وغيره ، فقامت شعوب أوروبا تعلن تمردها على الكنيسة وتعاليمها .

إنَّ الإسلام شجَّع على العلم وشحذ الهمم ، بل إنَّ أول آية نزلت كان فيها تمجيد العلم والقلم ، وجاء القرآن ليرفع شأن العلماء في أي تخصص كانوا لاسيما وأنَّ العلم أورثهم الخشية من الله قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي

﴿الَّذين يَعْلَمُونَ والَّذينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] . وقال أيضاً : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2] .

لذلك كان الإسلام عزّاً للعرب والمسلمين ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله .

ألقِ نظرةً على كلام أمير المؤمنين ، وانظرْ إلى عالمنا الإسلامي بماذا يعتز ويفتخر ، وبماذا يتباهى؟ .

* * *

(١) الآية ٩ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر .

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه :

«إنَّ القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر ، وأنتم إذا فتحتم الأندلس ، فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر»

وقال موسى بن نصير عن الأندلس :

«لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية»

الفصل الثالث

الفتح الإسلامي للأندلس

كانت أسبانيا واحدةً من الأقاليم والأمصار التي تدين بدين النصرانية ، حيث بسطت الكنيسة سيطرتها وأحكمت قبضتها ، وأصبحت المسيحية عاجزة عن تقديم العلاج للبشرية التي تعجُّ في جهلٍ وظلام ، فأصبحت عقيدتها ألعوبةً بين رجالات الكنيسة .

عاش أهلُ أسبانيا كما عاش غيرهم من الأمم الأوربية في ظلام طامس وجهل مطبق ، وكان يحكمها ملك ظالم مستبد هو «لذريق» الذي اتصف حكمه بالقهر والاستبداد ، وكانت أسبانيا بعيدة عن العالم الإسلامي فموقعها في أقصى المغرب أكسبها هذا البعد الجغرافي .

ولما فتح عقبةُ بن نافع رحمه الله بلاد المغرب بعد هزم البرابرة والروم واصل فتوحاته إلى طنجة ، فدحَرَ جميع الجيوش أمامه ، وتابع سيره عَبْر البلاد حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ساحقاً كلَّ مواجهة من البربر أو الروم ، وقال كلمته على ساحل المحيط : «يارب لولا هذا البحرَ لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[1] .

تابع الفتح بعده موسى بن نصير ، الذي عُيّن والياً على بلاد المغرب كلّها عام ٩٠هـ ، حيث أخضع قبائل البربر للإسلام ، فغدت بلاد المغرب ولايةً إسلامية تابعة للخلافة الإسلامية الأموية .

ولد موسى بن نصير رحمه الله سنة ١٩هـ في خلافة عمر بن الخطاب

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ١٠٦ .

رضي الله عنه ، وكان معروفاً باستقامته وتقواه ، فهو أحد التابعين المعروفين بالغيرة على الدين ، وكان والياً حسن السيرة في نشر العدل بين رعيته ، قائماً على شؤون المسلمين .

كان يفتح البلاد بالسيف والقرآن ، فأخضع قبائل البربر للإسلام وأرسل إليهم الدعاة والعلماء لتعليمهم القرآن والإسلام ، فدخلت القبائل في دين الله أفواجاً .

ومن تقواه واستقامته أنه أخرج الناس في بلاد المغرب لصلاة الاستسقاء بسبب القحط الذي تعرض له أهلها ، فصلى بهم ثم دعا وتضرع إلى الله عز وجل ، فقيل له : «يا أمير ألا تدعو لأمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك ، فقال هذا مقام لايذكر فيه إلا الله ، فأمطروا من يومهم»[1] .

أهمية الأندلس

تُعدُّ شبه الجزيرة الألبيرية - الأندلس - منطقةً هامةً وموقعاً استراتيجياً للفتوحات الإسلامية المتوجهة للمغرب فهي نافذة المغرب إلى بلاد أوروبا مثل فرنسا وغيرها ، وبفتحها تصبح أوروبا مهددة من قبل الجيش الإسلامي .

موقعها الجغرافي

تقع أسبانيا غرب أوروبا ، وأطلق عليها اسم الجزيرة تغليباً لها ، ويفصل بينها وبين بلاد المغرب مضيق صغير سمي بعد ذلك بـ «مضيق جبل طارق» يبعد عن ساحل طنجة ١٣كم تقريباً ، ومع أنَّ المضيق صغير إلا أنه فصل أسبانيا عن العالم الإسلامي ، فصار الإقليم بعيداً ، ولكن لمواجهتها للأقاليم

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٤/ ٢٠٦ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤٠٣ .

الإسلامية المغربية فكَّرَ كثيرٌ من الخلفاء بفتحها ونشر الدين بين سكانها .

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : «إنَّ القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر ، وأنتم إذا فتحتم الأندلس ، فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر»[1] .

بينت رؤيته حُنكة القائد اللبيب ، فقد رغَّبَ في فتح الأندلس ، فإذا كان الرسول ﷺ بشَّر بفتح القسطنطينية ، وإن عملية فتحها يكلف المسلمين مشقة صعبة ، لأنها معركة يخوضونها في البحر ، وهم من بيئة صحراوية ليس فيها بحر ، ولم يتعلموا فنون القتال فيه ، ففتحها يكون شاقاً ، ولكن فيه أجر ، والأجر على قدر المشقة ، فكذلك فتح الأندلس يساويها في الأجر ، لأنها تفتح عن طريق البحر وهو المضيق .

عندما خضعت بلاد المغرب بعد عقبة بن نافع لموسى بن نصير تطلعت نفسه للجهاد في سبيل الله ونشر دينه ، ففكَّر بفتح الأندلس ، ومن ثم ضمها للخلافة الإسلامية الأموية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك رحمه الله ، وكانت فكرته عميقة حيث أراد أن يجعل من فتحها طريقاً إلى «رومية» ، ومن ثم الدخول إلى «القسطنطينية» ، فقال : «لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية» ، وهو يريد أن يلتفَّ على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية من جهة الغرب .

إنَّ فتح الأندلس نعمةٌ من نعم الله على أهلها ، ولن تعرف نعمة الإسلام على أسبانيا إلا إذا اطَّلع الإنسان على تاريخ أسبانيا قبل دخول الإسلام ، فقد كانت الأرواح مخنوقة ، والأنفس مكتومة ، والشعوب مقهورة .

(١) النجوم الزاهرة ١/ ٨٤ ، الكامل ٣/ ٤٧ .

أما الجمال الطبيعي للبلاد ، فكانت سحراً جذاباً للنفوس ، ففيها الأنهار الجميلة المتدفقة ، والينابيع الساحرة المتألقة ، والحدائق الغناء ، وقد تفنن الشعراء في وصفها والتغني بجمال سحرها .

قال أحدهم[1] :

سألتُ القومَ عن أُنْسٍ ، فقالوا   بأندلس ، وأندلسٌ بعيدُ

خطة الفتح :

كانت عمليةُ الفتح الإسلامي توفيقاً من الله تعالى تجلّى فيها إخلاص الفاتحين في نشر دين الله ورفع راياته ، وبما أنَّ المغرب أقربُ ولايةٍ إسلامية للأندلس أشار موسى بن نصير على مولاه طارق بن زياد بفتحها .

قاد طارق حاميةً عددها سبعة آلاف مقاتل انطلقت من طنجة وعسكرتْ على ساحلها ، وقد صوَّب بصره باتجاه الجزيرة - أسبانيا - متشوّقاً للجهاد في سبيل الله ونشر دينه بين شعوبها ، وقد قضى تلك الليلة على الساحل تحت النجوم الساطعة ، وبين حفيف الأشجار ونسيم البحر .

في الصباح استيقظ طارق فرحاً مسروراً على رؤية رآها ، لايزال نورها يشعُّ في قلبه ، حيث رأى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدُوا السيوف وتنكّبوا القسيّ ، فيقول له رسول الله ﷺ : تقدَّم لشأنك ، ونظر طارق إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه[2] .

كانت هذه الرؤيا شرارةً أشعلت لهيب الشوق في قلبه للمضي قدماً

---

(١) معجم البلدان ١/ ٢٦٢٠ .

(٢) نفح الطيب ١/ ٢١٦ .

في سبيـل اللـه ونشر الإسلام فوق ثرى الأندلس ، فجهز السفن وأبحر معها في المضيق رافعـة رايـة لا إله إلا الله محـمـد رسـول الله ، والأمـل يحدوهـم لنشر ديـن اللـه .

أبحرتْ السفنُ في سنة ٩٢هـ من شهر شعبان ، وقد ألقيت مرساها قبالة الجـزيرة الخـضـراء عـند جبـل «كـالبي» ثم حـمل اسم طارق إلى يومنا هذا ، فسمي بـ «جبل طارق» .

وقد جمع طارق الجنود وشحذ هـممهم بهذا الفتح المبين إذا تحقق على أيديهم ، ولمعت في ذهنه فكرة ، أراد خـلالهـا زعزعـة نفـوس العـدو وقـذف الخوف والرعب في قلوبهم ، فأعطى أوامره بإحراق سفن المسلمين ، وذلك ليقطع اليأس في قلوب الجند المسلمين من العـودة إلى المغرب ، فإمـا نصرٌ ونشرُ دينه ، وإما شهادةٌ في سبيل الله[1] .

كـانت مغـامـرة من المغـامرات العظيـمـة ، وتضـحيـة فريدة في تاريخنا المشرق ، وجرأة عليـة ، وشجاعة قـوية ، وقـد لامه رجـال جيشه ، وقـالوا له : لقد قطعت بنا الجبال فكيف نرجع إلى بلادنا ، فتبسَّم من قولهم ، ووضع يده على السيف ، وقـال : إنما يحـافظ على السفن ووسـائل النقل والسـلامـة من يفكِّر في الرجوع ، أما أنا فقد عزمت على البقاء في هذا البلد ، والقتال إلى أن يكون لنا وطنٌ أو يكون لنا مدفنٌ ! .

كـانت فكـرة ناجـحة أراد من خـلالهـا إضعـاف قلوب الأعـداء وبثَّ الخـوف والـرعب في قلـوبهـم ، فـعندمـا يرون إقـدام المسلمين على إحـراق سفنهم بأيديهم ، سيعلمـون أنَّ المسلمين لن يتـراجعـوا ، وهي حـرب نفسية

(١) لم تتفق كتب التاريخ على رواية إحراق السفن فهناك من يشكك في صحتها .

لها تأثيرها في نفوس الجند ، وكم هُزِمت جيوشٌ باستعمال الإشاعات وبثّها في صفوف الجند .

أثار طارق فيهم روح الجهاد والاستماتة في سبيل الله ، وكان النصر معه في المعركة ، وعلى أساس هذه المغامرة الإيمانية قامت تلك المدينة الزاهرة المتألقة ثمانية قرون ، فكانت مفخرة العرب ومدرسة الغرب .

وصارت عزيمته وثباته درساً للقادة من بعده ، فها هو السلطان محمد الفاتح حاصر «القسطنطينية» خمسين يوماً ، ولامه رجاله ، وقالوا له : إنك حاصرت المدينة أياماً عديدة ولم تفتح ، فقال بقوة إيمانه ويقينه بالله : «في هذه المدنية إما أن يكون لي فيها بيتٌ أو قبر»[1] .

ومما يدلنا على حنكة القائد طارق وتأثير فعله في قلوب الأسبان أنَّ «لذريق» ملك أسبانيا أرسل قوة ليستطلع قوة المسلمين ، فلما رأى جنده إحراق السفن رجعوا إلى ملكهم خائفين مذعورين قائلين : لقد جاءك منهم من لايريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها[2] .

خطب طارق في جيشه خطبةً بليغة مؤثرة قائلاً : أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم .

---

(١) السلطان محمد الفاتح د ./ عبدالسلام عبدالعزيز فهمي .

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٤٢ .

فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية[1] .

التقى الجيشان بموضع يدعى «وادي لكة» وذلك في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢هـ ، وقد هشهشت نفوسهم ، وتاقت قلوبهم إلى جنان رب العالمين ، لاسيما وأنَّ الحدث في شهر رمضان ، ففيه تهدأ النفوس ، وتخفق القلوب شوقاً للجنان .

كان عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألف مقاتل شعارهم وهتافهم التكبير والتهليل ، وعدد جيش «لذريق» مائتي ألف مقاتل ، وكانت معركة حامية حمل فيها طارق على طاغية الجيش «لذريق» وحمل معه أصحابه ، فتفرّق جيش الأسبان ، وفرَّ لذريق ، وانتصر المسلمون .

لقد كان نصراً إيمانياً فيه صبر وثبات ، وقوة عقيدة رغم قلة عددهم ، قال تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2] .

كانت انتصارات المسلمين في أسبانيا ذات وقع كبير في كثير من الولايات الأخرى الإسلامية ، فعندما سمع موسى بن نصير بانتصارات مولاه طارق جهز جيشاً ثم اتجه إلى الجزيرة الخضراء - أسبانيا - على رأس جيش يبلغ ثمانية عشر ألفاً نصفهم من البربر ، وكان دخوله لحماية طارق خوفاً من جيوش أوروبا .

دخل موسى بن نصير من غرب الطريق الذي سلكه طارق فدخل

---

(١) بعض كتب التاريخ تشكك في صحة رواية حرق السفن ، وعلى كلٍ فإن صحت فإن طارقاً أراد بذلك حرباً نفسية يحقق من خلالها نصراً لجيشه .

(٢) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

أسبانيا من جهة الغرب ، فافتتحها عنوة ، ثم دخل مدينة «قرمونة وكارمونا» ولم تكن أحصن منها فدخلها ثم اتجه إلى مدينة «أشبيلية» ، وهكذا تساقطت المدن الأسبانية تحت مطارق الفتح الإسلامي الواحدة تلو الأخرى ، وذلك بسبب الجيش الإسلامي الذي يقوده رجل في السبعينات من عمره جعل الجهاد في سبيل الله أعظم أمنيته .

وقد هيأ الله في دولة بني أمية قائدين قويين عُرِفا بصلابتهما في الإيمان وحنكتهما في القتال ، فموسى فتح بلاد المغرب ، وقتيبة بن مسلم فتح بلاد المشرق ، وعلى يديهما وصل الإسلام إلى جنوب فرنسا غرباً وإلى بلاد الصين شرقاً .

اتصف موسى بن نصير برجاحة العقل والتدبير الدقيق مع الحزم في الأمور بالإضافة إلى خبرته الطويلة في فنون القتال ، كذلك استقامته وتقواه اللتان اشتهرا بهما بين رعيته ، وكانت خطته التي رسمها لمولاه طارق متمثلة بمحاربة جيش لذريق ودحره ثم التوقف وعدم زج الجيش بمعارك أخرى خوفاً عليه ، ولكن اجتهد طارق ، فبعد انتهائه من القتال دخل مدناً وفتحها وتوغّل داخل أسبانيا .

أراد موسى ألا يزُجَّ بالجيش في أراضي شاسعة ومدن واسعة وهو بعيد عن القاعدة الإسلامية ، وهي وجهة نظر القائد ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار ، وعندما التقيا أظهر طارق الطاعة لأميره ، وسار الجيشان من جهتين مختلفتين .

اتجه موسى بجيشه من جهة الغرب ، ففتح بلنسية وبرشلونة ، ثم اخترق جبال البرنس جنوب فرنسا ، وأعلن عن خطته لفتح بقية الجزيرة الخضراء ،

حيث أراد فتح أوروبا من جهة الغرب ، ولو تم هذا الأمر لتغير تاريخ أوروبا .

توقفت فتوحات موسى حيث حال بينه وبين ذلك خليفة المسلمين سليمان بن عبدالملك ، وقد خضعت له بلاد الأندلس كلها ماعدا الشمال حيث لجأ العدو إليها ، لأنها سلسلة من الجبال الوعرة الجافة .

سوف نرى بعد ذلك كيف انحدرت جيوش النصارى من منطقة الشمال بعد قرون زمنية ، وأجلوا المسلمين عن أسبانيا .

ولو اهتمَّ المسلمون الفاتحون ببقية الجزيرة ، وأخضعوا منطقة الشمال للإسلام لما حدثت مأساة الأندلس ، ولكن هناك حكم ودروس أرادها الله لتكون عبرة للأمة وللأجيال كيف تحافظ على النصر .

دخلت الجيوش الإسلامية أسبانيا وأخضعوها للإسلام ، ونظَّم موسى بن نصير الأمور فيها ، من الجوانب الإدارية والاجتماعية وغير ذلك ، «وكان عهد الصلح مع الإسبان أن تحفظ على السكان دماؤهم ، فلايسبون ، ولايفرق بينهم وبين أولادهم ونسائهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولاتحرق كنائسهم»[(١)] .

وبقي فيها مايزيد على عامين ، واستخلفَ عليها ولده عبدالعزيز ثم توجَّه إلى دمشق ، وأصبحت الأندلس ولايةً تابعة للخلافة الأموية ، ومارس العرب حياتهم فيها ، فكانوا خليطاً من العرب القيسيين والبربر[(٢)] .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٥٤ .

(٢) البربر بدو الصحراء المغربية الذين عرفوا بشدتهم وقسوتهم حاربوا الإسلام في أول الأمر ، ولكنهم استسلموا لتعاليمه ، فدخل في قلوبهم ، وحولهم إلى أمة تذود عن حياض الإسلام ، ولمع منهم رجال مثل طارق بن زياد .

الفصل الرابع

الحضارة الإسلامية الأندلسية وأثرها على أوروبا

فتح المسلمون بلادَ الأندلس ، وملكوا ثلثي شبه الجزيرة الخضراء ، وأراد الفاتحون التوغل داخل الجزيرة بما في ذلك المناطق الشمالية الوعرة ، ولكنهم توقفوا حيث لجأ أبناء الغوط المنهزمين إلى الجبال الشمالية ، وأنشأو مقاطعات جبلية ، وهي : «قشتالة ، وليون» ؛ وقنع المسلمون بما فتحوه ، واعترفوا باستقلال تلك المقاطعات التي اعتبروها شراً لابد منه .

أحسَّ الأسبانُ بالفرق بين حكم العرب المسلمين وحكم الغوط ، فرأوا التسامح العربي الإسلامي وصدق المسلمين في ترسيخ العدل والمساواة بين طبقات الشعب ، وقد أبقى الفاتحون المسلمون السكان الأصليين على إدارتهم ، بل قلّدوهم بعض الوظائف في كثير من أمور الدولة ، ورأوا فرقاً كبيراً بين مدنية المسلمين ومايحملون من العلم والثقافة وبين وحشية الغوط الحاكمين وثقافتهم المتأخرة .

مع مرور عقودٍ زمنية ازداد دخول سكان الأندلس في الإسلام وأطلق عليهم اسم «المسالمة» ، وأصبح المسلمون فيها أغلبية كبيرة ، ولمع منهم علماء مثل أبي محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ) من أهل قرطبة ، وهو فقيه وأديب ومؤرخ ، ويقال : إنه من أصل نصراني ، وبقي بن مَخْلَد الحافظ المعروف ، وغيرهم من المئات بل الآلاف الذين يصعب ذكرهم ، ومن لم يدخل في الإسلام من السكان الأصليين بقي على دينه النصرانية ، وقد أطلق عليهم اسم «المستعربون» وقد صان الإسلام حقوقهم وأعطاهم حرية العادات

والتقاليد والعبادة ، فكانوا يمارسون عادات المسلمين حُبّاً في الدين ، فامتنعوا عن أكل لحم الخنزير .

وكلما تقدمت السنوات ازداد انتشار الإسلام في الأندلس ، حتى أصبح غيرُ المسلمين من السكان الأصليين أقلية ، فالأكثر أسلم ورضي بهذا الدين ، وغدت أسبانيا ولاية إسلامية شأنها كشأن الولايات الإسلامية الأخرى .

يقول : سيديليوا ولبون : «كان العرب في إسبانيا من حيث الأخلاق والعلم والصناعة أرقى من النصارى ، وكان في أخلاقهم وصفاتهم شيء من الكرم والإحسان ، مما لم يكن له أثر عند غيرهم»[1] .

قرطبة عروس الأندلس

بعد سقوط الخلافة الأموية في دمشق لاحق العباسيون الأمويين في كل مكان يعملون سيوفهم في رقابهم ، وكان ممن كتب الله النجاة لواحدٍ من أمراء بني أمية «شاب» اتصف بالشجاعة والجرأة والإقدام ، وهو عبدالرحمن ابن معاوية بن عبدالملك بن مروان بن الحكم حيث فرَّ من الشام ، ثم فلسطين ، ثم مصر مختفياً ، ثم أفريقيا حتى وصل إلى بلاد المغرب ، وكان العباسيون يلاحقونه ، فكلما خرج من بلد دخلوها وراءه حتى وصل إلى الأندلس ، فرآها مضطربة يسودها الفوضى لأن دولة آبائه قد ولّت ، فاستطاع بذكائه كسب هذه الظروف ، فالتفَّ الناس حوله ، لأنه يمثل رمز الخلافة الأموية ، فنصَّب نفسه أميراً عليها بعد معارك خاضها ، واستطاع أن يقيم دولة قوية مترامية الأطراف استمرت مايزيد على قرنين ونصف ، فقمع الاضطرابات ، وأرسى الأمن وحكم البلاد بقوة وشكيمة على الرغم من

(١) الإسلام والحضارة العربية ص/ ٣٥٩ .

صغر سنه ، ولما جاء أبناؤه وأحفاده ممن حكموا البلاد من بعده واصلوا فيها النهضة علمية ، فغدت الأندلس تضاهي مدينة بغداد بعلومها وجامعاتها .

وغدت قرطبة كعروس تختال بالجسور الرائعة ، وتزهو بشوارعها المعبدة والمضاءة ، وكان المسافر يسير عشرة أميال في طريقها على ضوء مصابيح شوارعها ، وكانت مصابيحها تـثَّبت على حيطان المنازل ، وتباشر فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران .

قال بعضهم[١] :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها	ولا تعظيم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة	ومامشى فوقها مثل ابن حمدين

وقد أطلق عليها أهالي مدينة «جرمانيا» في منتصف القرن الرابع الهجري : جوهرة العالم[٢] .

لقد نشطت فيها الناحية العمرانية ، فأقيمت مبانيها على الطراز العمراني العربي الأندلسي الدمشقي ، وصارت مدينة قرطبة ثاني مدينة في العالم بعد بغداد .

كان من آثار التقدم والنهضة أن يؤم كثير من الناس مدينة قرطبة ، لذلك ازدحمت بالسكان ، ووصل عدد سكانها إلى ما يقرب من مليون نسمة ، وإذا نظرنا إلى هذا العدد في نهاية القرن الرابع الهجري ، فإنه يعد كثافة سكانية إذا ماقيس بين تعداد السكان في مدن العالم الأخرى ، بينما نجد سكانها اليوم

---

(١) المقري نفع الطيب ١/ ٢٤٨ .

(٢) المرجع السابق .

لايزيد على نصف مليون نسمة ، وهذا يبين النهضة الاقتصادية والعمرانية التي أحدثها المسلمون .

لقد تحولت قرطبة إلى مركز تجاري وصناعي ، وخفق الهلال في علياء سمائها ، وارتفعت مآذنها الشامخة ، حتى وصل عدد مساجدها ما يقرب من ١٦٠٠ مسجد ، ويُعدُّ جامع قرطبة الذي بناه عبدالرحمن الداخل أعجوبة رائعة تحكي الإبداع العمراني الإسلامي ، أما عدد أسواقها ، فيذكر المؤرخون أنَّ شوارعها كانت تزدان بثمانين ألف متجر[1] ، مما يدل على أنَّ حركة التجارة بلغت ذروتها ، لأنَّ الحكم الإسلامي ساعد على استقرار الحياة الاقتصادية ، كذلك الأمن والأمان والعدل بين الناس كل هذا من العوامل المؤثرة في تحسن اقتصاد البلاد .

لقد أحسَّ الأسبان بالتقدم والرقي والتطور في بلادهم ، وشعروا بعدل الإسلام وسماحته ، لاسيما أنَّ الإسلام يواكب العلم والتقدم والقراءة والمعرفة ، فقد حرر العقل من الأوهام والخرافات ، وجعله حُرّاً في تفكيره وإبداعه ، فأحدث انقلاباً في حياة الناس ، وكان الازدهار ملموساً في الأمور العلمية والسياسية والاقتصادية .

الناحية السياسية :

كان من الأمر الطبيعي أن يتأثر النظام السياسي في بلاد النصارى المجاورة للأندلس بنظام الحكم الإسلامي فيها ، وذلك بسبب طول فترة حكم المسلمين في الأندلس ، وقوة حضارتهم ودقة نظامهم الإداري في إدارة البلاد .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ٢٥٦ .

كانت السلطة المسيطرة في بلاد النصارى السلطة البابوية المتحكمة بأمور البلاد والعباد ، وقد بسطت الكنيسة نفوذها على الدولة ، فالويل لمن يخرج عن تعاليمها وأنظمتها ، وكانت السلطة البابوية سلطة طاغية لا هم لها إلا ابتلاع الأراضي وفرض الضرائب لتحكم قبضتها .

ولما حكم المسلمون الأندلس تأثرت بلاد النصارى المجاورة بنظام حكم المسلمين ، فبدأت حركات إصلاحية تدعوا إلى التمرد عن الكنيسة وفصل سيطرتها عن الدولة ، ومن مظاهر التأثر فصل السلطة القضائية والسلطة التشريعية والتنفيذية ، فصارت أنظمة الحكم أكثر تنظيماً من قبل ، وانفصلت السلطات عن بعضها البعض .

كذلك تأثرت دول أوروبا المجاورة بتجمع المسلمين تحت كيان واحد ، وهو مايُسمى «الأمة» ، فحاولت أن تجمع نفسها تحت دعاوى مختلفة عن تجمع المسلمين ، فلم تجد دعوى تجتمع تحتها إلا القومية أو الدينية ، ولذلك جمعت نفسها عندما أرادت أن تحارب الإسلام في بيت المقدس ، فاجتمعت دول أوروبا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وجمعوا أنفسهم مرة أخرى عندما أطاحوا بالخلافة الإسلامية العثمانية وقسموا تركتها من البلاد فيما بينهم ، ثم استعمروها عسكرياً .

الناحية العلمية :

نشطت الحياة العلمية في الأندلس ، فبعد أن كان الجهل سائداً ومتفشياً لدى الحكم المسيحي محارباً كل إبداع ، جاء الإسلام بتشريعه داعياً العقل إلى العلم والتقدم والتفكير ، وبينت الآيات القرآنية قيمة العلم وأثره في حياة

البشرية ، ورفعت قدر العلماء ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] .

وقال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[3] .

وقد شعر الناس بقيمة الدين الجديد الذي وفَدَ عليهم ، فأحبوه بعقولهم وقلوبهم ، وأقبلوا عليه ينهلون من معينه المتدفق فافتتحت المدارس في كل بلد وقرية ، وقد وصلت نسبة التعليم إلى ١٠٠٪ وهذه الإحصائية معروفة في كتبهم .

يقول دوزي : «إنه كان كلُّ فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة بينما كان في أوروبا جميع النصارى حتى النبلاء والأشراف منهم لايفكرون في التعليم»[4] .

إنَّ هذه النسبة العالية من التعليم في الأندلس في ظلم الحكم الإسلامي تُعَدُّ نسبةً عالية في القرن الثالث والرابع الهجري ، إذا ما قيست اليوم بالمجتمعات المتقدمة والتي قطعت أشواطاً من التقدم العلمي .

إنَّ نسبة التعليم في اليابان وصلت اليوم إلى ٩٤٪ ، وهي أكبر نسبة في

---

(١) الآية ٩ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة .

(٤) الإسلام والحضارة العربية ٢٥٦ ، ونهضة المسلمين وواقعنا المعاصر ، للرئيس علي عزت بيجوفتش ، مجلة المجتمع العدد ١١٠٦-٢٦ محرم ١٤١٥هـ نهضة المسلمين .

العالم ، وفي أمريكا وصلت اليوم نسبة التعليم إلى ٨٠٪ ، بينما كانت عالية في بلاد الأندلس إبان الحكم الإسلامي إلى نسبة ١٠٠٪ .

لقد أنشأ الأندلسيون المسلمون المدارس وخزائن الكتب ، وأقاموا الجامعات التي كانت مواطن العلم في أوروبا زمناً طويلاً ، وبقيت قرطبة مدة ثلاثة قرون من أكثر مدن العالم نوراً وعلماً ، وكانت قصور حكامها تعجُّ بالعلماء والأدباء والمفكرين .

ووصل عدد المدارس في قرطبة إلى ثمانين مدرسة عامة ، وفي القرن الرابع الهجري أنشئت سبع وعشرون مدرسة خاصة لأبناء الفقراء .

أما مكتباتها العامة فقد ازدانت وازدادت بكثرة مجلداتها ، فقد وصل عدد فهارسها إلى ٤٤ مجلداً وعدد مجلداتها إلى أربعمائة ألف مجلد[١] .

وكان لملوك الأندلس حبٌّ عميق باصطفاء كبار العلماء للوزارة ، يشتملون على الدولة ويدبِّرون أمرها ، ومنهم من برزوا في السياسة والإدارة وقيادة الجيوش .

يقول أحد المستشرقين : إنَّ حركة الفتح التي تمت في الأندلس كانت حركة استطاعت عبر القرون القادمة النهوض بالأندلس الإسلامية إلى ذروة الحضارة البشرية[٢] .

ويقول المستشرق الهولندي دوزي :

«لقد جذبت هذه الحضارة المزدهرة رجال الكنيسة وعامة الناس في

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق .

الغرب النصراني ، ورحلوا بكل حرية إلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ليحضروا محاضرات مشاهير العلماء المسلمين في الجامعات الإسلامية»[1] .

في علم الطب

تقدم المسلمون في علم الطب ، وقد اشتهر الطبيب الكبير ابن سينا في المشرق العربي ، حتى غدا رئيس الأطباء ، وهو الذي كان يخرج الأطباء من تحت يديه ، ويمنحهم شهادة بعد اجتيازهم الاختبار ، ويكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

بإذن البارئ العظيم نسمح له بممارسة فنِّ الجراحة لما يعلمه حق العلم واليقين ، ويتقنه حق الإتقان ، فإنه بإمكانه معالجة الجروحات حتى تشفى ويفتح الشرايين ، واستئصال البواسير ، وقلع الأسنان وتخييط الجروح[2] .

أما في بلاد الأندلس ، فقد حارب النصارى التقدم العلمي ، ووصفوا الأمراض بأنها أرواح شيطانية دخلت جسد المريض ، وكانوا يعزلون المريض ويتركونه حتى يموت ، واستمر هذا الحال في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر .

بينما نجد المسلمين في الأندلس قد أبدعوا في علم الطب ، وقطعوا فيه أشواطاً طويلة ، ففي مدينة قرطبة وحدها أنشئ خمسون مستشفى وكانت فترة حكم الخليفة الناصر من أزهى سنوات الحكم ، وفي ظل حكمه شهد

---

(١) ونهضة المسلمين وواقعنا المعاصر ، للرئيس علي عزت بيجوفتش ، مجلة المجتمع العدد ١١٠٦-٢٦ محرم ١٤١٥هـ نهضة المسلمين .

(٢) شمس العرب ٢٣٩ .

الناس هذا التقدم العلمي والطبي ، وقد لمع في قرطبة أسماء أطباء كانت لهم شهرة ملأت الآفاق مثل الطبيب المشهور أبي القاسم الزهراوي الأندلسي الذي أدخل تجديدات كثيرة في مداواة الجروح وتفتيت الحصاة داخل المثانة ، وقد توصل إلى أن بعض الأجسام قابلة للنزيف حيث شاهد عدة حوادث نزيف في عائلة عالجها بالكي ، وتوصل إلى اكتشاف التهاب المفاصل وداء السل الذي يصيب فقرات الظهر ، وقد سمي هذا الداء باسم العالم الإنكليزي (بون) الذي عرف بالداء البوني ، كذلك اكتشف الجراح أبو القاسم الزهراوي علاج تشوهات الفم والفك ، ونجح في عملية شق القصبة الهوائية حيث أجرى هذ العملية على خادمه .

ووفق أيضاً في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة ، وهو إنجاز طبي علمي كبير ، ولكن مما يؤسف أن الجراح الفرنسي الشهير (برواز باري) : اكتشفه عام ١٥٥٢م ونسبه لنفسه ، وادعى أنه اكتشفه لأول مرة ، بينما اكتشفه الجراح أبو القاسم الأندلسي قبل ذلك بـ٦٠٠ سنة[١] .

لقد ألّف أبو القاسم الأندلسي كتابه الشهير «التصريف لمن عجز عن التأليف» حيث جمع فيه جميع تجاربه الخاصة ، ويُعُدّ هذا الكتاب من أسس علوم الجراحة الأوربية ، حيث اعتمدوا عليه اعتماداً أساسياً في جامعاتهم الطبية .

كان من الأمر الطبيعي أن تنهض أوروبا من كبوتها عندما تحررت من الكنيسة ، ولكن نهضتها كان على يدي أطباء وعلماء مسلمين ، وعندما جاء

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص / ٢٧٨ .

الفاتحون المسلمون وحملوا مشعل الإسلام وطرقوا أبواب جنوب فرنسا تفجرت الإبداعات وتحررت العقول ، وقامت الجامعات .

ومن الجهل الذي حلّ على أوروبا أنّ المسلمين عندما دخلوا الأندلس وشيّدوا حضارتهم بقي جيرانهم من الجانب الآخر من البرانس قرنين أو أكثر يُصمّون آذانهم ، ويُغمضون عيونهم عن العلوم والمعارف التي أتى بها الفاتحون المسلمون ، لأنهم رأوا في تلك الحضارة الشامخة صوراً قائمة يحملها المسلمون الفاتحون .

والسبب في ذلك أنّ الجهل أعمى أبصارهم ، فكل تقدم علمي وإنجاز طبي كانوا يعدونه طلسمات أو سحراً ، ولكن ما لبثت أن وصلتهم رحمة العرب المسلمين فهزتهم من نومهم العميق الثقيل .

كان من الأمر العادي أن تتأثر دول أوروبا بحضارة المسلمين في الأندلس ، وخاصة النهضة العلمية التي تفجرت في مدينة قرطبة ، وبما أنّ أسبانيا كانت نافذة على بقية دول أوروبا مثل فرنسا وبريطانيا وغيرهما ؛ فإنهما كانتا من أول الدول الأوروبية تأثراً بحضارتها .

لقد أرسلت أوروبا فلذات أكبادها عن طريق بعثات وإرساليات تفد إلى قرطبة لتنتظم في جامعاتها ، فتعلمت العلوم الكونية الطبية ، وعندما رجع أبناؤهم إليهم بعد دراستهم ، كانوا معجبين بحضارة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم ، فأصبحوا يتكلمون مع ذويهم باللغة العربية نتيجة إعجابهم وتأثرهم بالعرب المسلمين ، منذ ذلك الحين قال ذووهم : أرسلناكم إلى جامعات المسلمين لتتعلموا علومهم ، لا لتتكلموا بلغتهم .

لقد قدم الأطباء المسلمون مؤلفات عظيمة في علوم الطب ، وإن النظريات التي يعمل بها أطباء العالم اليوم كانت من قبل أطباء مسلمين في العصور الأولى .

لقد تُرجم كتاب الكليات لابن رشد القرطبي ، وأصبح اسمه في اللاتينية aver voesgolget ، وكذلك ترجم كتاب التيسير لابن زهر الذي عرف عندهم aven zoar .

إنَّ هذا السيل من هذه العلوم تسرب عن طريق الجامعات المسلمة في الأندلس ، وامتدت هذه المعارف إلى شواطئ أوروبا ، فأخذها أبناؤهم ممن كان يدرس في البلاد المسلمة ، فحوَّل بلادهم إلى جنات تتفيأ ظلالها الإنسانية ، وعندما انمحى الإسلام من بلاد الأندلس على يد النصارى امتدت أيديهم الملوثة إلى تراث المسلمين العلمي ، فوجدوا مخطوطات نادرة كتبها علماء مسلمون ، فأحرقوا منها الكثير بسبب همجيتهم التي لايميزون بها بين النافع والضار ، ولعل الذي حملهم على إحراق الكتب بغضهم للإسلام والمسلمين ، وحقدهم الدفين الذي حملوه في قلوبهم .

بهذه العلوم بدأت أوروبا تستيقظ شيئاً فشيئاً فسارت في موكب العلم والتقدم ، وأخذ المسلمون يتراجعون بسبب تأخرهم في دينهم ، وقامت جامعات الغرب تنهل من علوم العرب المسلمين ، مستغلين غفلتهم وتخلفهم في حياتهم ، فقامت جامعة أكسفورد ، وبادوا ، وباريس ، وكابرج .

أما نظام المستشفيات عندهم فقد اقتبسوا مبادئه من المستشفيات الإسلامية في الأندلس ، فقد طلب الغرب من البابا الذي كان مسيطراً عليهم

إنشاء مستشفى عندهم ، فصدر الأمر عندهم بإنشاء أول مستشفى وهو مستشفى ستراسبورغ سنة ١٥٠٠م ، وهو أول مستشفى عربي الذي أنشأه الوليد الخليفة الأموي ، حيث عين فيه أطباء وممرضين .

وقد بلغت حضارة المسلمين في الأندلس أنَّ ملوك أوروبا كانوا يبعثون البعوث إلى جامعاتها ومدارسها لينهلوا من معارفها وعلومها ، ثم نشرها في بلادهم .

ومن الملوك (جورج) الثاني ملك إنجلترة حيث أرسل كتاباً إلى الخليفة هشام الثالث يقول فيه :

من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج ، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس ، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام[1] .

بعد التعظيم والتوقير ، نفيدكم أننا سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل ، لتكون بداية حسنة في اقتناء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة .

وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتشرف بلثم أهداب العرش ، والتماس العطف ، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم ، وحماية الحاشية الكريمة .

---

(١) نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية د . محمد عمارة ، ص ١٧٧ ، مقرر تاريخ السنة الثانية الثانوية الأزهرية ص ١٣٦ . أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص٢٧٣ .

قد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص .

الإمضاء

خادمك جورج الثاني ملك إنجلترة

الناحية الاقتصادية :

إنَّ الاستقرار السياسي وما ينتج عنه من عدل ومساواة بين إفراد الشعب يعطي استقراراً اقتصادياً ، وقد حدث هذا الأمر في الأندلس ، فقد تحسنت أحوال الناس اقتصادياً ، وعاشوا في يسر ورفاهية في حياتهم .

وقد استُصلِحت الأراضي الزراعية ، وأدخل الفاتحون المسلمون الرِّي إلى سهول الأندلس الخصبة ، وجلبوا معهم أنواعاً من الزراعات فأصبحت الأندلس بفضل ثقافتهم جنة كبرى لامثيل لها في أوروبا فقد شقوا الترع ، وأنشأوا الجسور والطرق ، والجوامع والرباطات .

ووضع الموريون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي - دستور زراعة النباتات المختلفة[1] ، ويقول المؤرخ الإسباني بالستر :

إنَّ العرب في الأندلس امتازوا بالسرعة الغريبة في تلقف علوم العالم القديم من فلسفة وتاريخ وحساب وجبر وهندسة ، وفلك وعلوم طبيعية ، وتفردوا خاصة بعلم النباتات .

ويقول لويس من علماء البرتغال : «إنَّ المنورين من مواطنيه اليوم يقدِّرون الأمة العربية المجيدة حقَّ قدرها ويدرسون علومها فيما أبقته من آثارها

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٢٠٨ .

الخالدة ، ولاسيما هندستها في المباني ، وتاريخ الغرب حافل بذكائهم وتقدمهم وسيادتهم في كل العلوم والفنون حتى في مجال الزراعة ، فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات واضطرارهم إلى خرابها ، يجعلون منها بعد سنين جنات حقيقية ، وذلك بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم العجيبة»[1] .

قال بعض الباحثين : «لما استولى العرب على ناربون وبروفنسيا وغيرهما عَمَروها فأحسنوا عمارتها ، وأخذت فرنسا من العرب أساليبهم في الزراعة ، وحفر الترع والخلجان ونظام الري»[2] .

لقد أجحف الغرب حقوق المسلمين ، وصوروا اكتشافاتهم بأنها طلاسم وسحر ، وعاشوا في عزلة بعيدة عن العالم ، ولكن قام رجالاتهم وأحدثوا ثورة على الكنيسة التي حاربت العلم والإبداع ، ثم جدُّوا واجتهدوا في طلب العلم ، فجنَّدوا له كل شيء فوصلوا إلى ما وصلوا إليه .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق .

الفصل الخامس

من القمة الشامخة إلى السقوط السحيق

لدى قرائتنا في التاريخ عن حضارة المسلمين في الأندلس وحكمهم الطويل قرابة ثمانية قرون من عام ٩٣-٨٩٧هـ نتعجب ونشعر بالذهول والدهشة كيف . . .ولماذا طُردَ المسلمون من البلاد التي حموها وأقاموا فيها مجداً تليداً ، وحضارة شامخة شهد بذلك أعداؤهم .

لماذا مُحيت آثارهم ، واندرست معالمهم أمام همجية الصليبيين في فترة قصيرة إذا ما قورنت بفترة حكمهم الطويلة؟ .

إنَّ عملية الهدم والتخريب أسرع من عملية البناء والإعداد ، فالذي بنى قصراً بسنوات عديدة من تصميم وبناء لا يأخذ إلا يوماً واحداً أو أقل في هدمه .

لقد جعل رب العالمين سنناً وقوانين في تعمير الحضارات والأمم ، وجعل لها سنناً في خرابها وتدميرها ، قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾[1] .

﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾[2] .

لقد ذكر القرآن كثيراً من الحضارات والأمم السابقة كانت ذات قوة

(١) الآية ٤١ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

ومنعة وجبروت ، ولكن طرأت عليها سنن الله من التغيير والتبديل فصارت أثراً بعد عين ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[1] ، وقال عن حال قارون الذي بغى وتجبر : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾[2] .

لم يحافظ المسلمون على حكمهم ومجدهم في الأندلس كما ينبغي أن يطلب منهم ، بل اشتغلوا بالخلافات والنزاعات ، فسلط الله عليهم سننه عقوبة لهم ، فهبطوا من القمة الشامخة إلى السقوط السحيق .

ولنا أن نتسآل :

ألم تملك الأمة عقيدة وديناً وكتاباً ، وهي أمة الوصاية والسيادة على الأمم كلها ، ألم يُتْلَ كتابها في محاريبها ، فأصغت الصخور الصماء خشية له ، ألم تملك الدعاة والعلماء الذي يحيون سيرة الرسول ﷺ وسيرة الصحب الأول؟

والجواب :

بلى ونحن نتفق على ذلك كله ، والله قادر على حفظ ملك المسلمين

---

(١) الآيات ٦-١٣ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٧٦ من سورة القصص .

ومجدهم في الأندلس ، ولكن الله جعل لكل شيء في ملكه قدراً وسنناً وفق أمره وإرادته ، ومن هذه السنن والقوانين أنَّ الله لن ينصر الأمة الإسلامية على عدوها ، ولن يمكن لها أمرها إلا إذا أقامت منهج الله وتمسكت بعقيدته ، وإذا عكست هذا الأمر فسيبقى الذل والهزيمة والضعف مكتوباً عليها .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾[3] .

وبقدر حفظ المسلمين لدينهم وتمسكهم بشريعتهم يزداد تمكينهم في الأرض ، وبقدر تخليهم عن شريعتهم وإخلادهم إلى الأرض تتمزق دولتهم ويتشتت أمرهم .

ومن هذا الأمر يتبين لنا الغاية التي خلق الله آدم وجعله خليفة في الأرض ، وذلك لإقامة منهج الله ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[4] ؛ فخليفة الله في الأرض عليه مهمة كبرى ، منها :

---

(١) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

نشر عقيدته ، وتحكيم شريعته ، وإقامة العدل ، ومحو الظلم ، والقضاء على استعباد الناس بعضهم بعضاً .

وهذه المهام الكبرى بينها الفاتحون المسلمون لغيرهم ، ففي بلاط كسرى فارس ، يقول الجندي المسلم بقوة إيمانه وعقيدته : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» .

والقرآن يبين ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾[2] .

يقول سيد قطب رحمه الله :

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . . .إنما هي هذا كله شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في

---

(١) الآية ٢٦ من سورة ص .

(٢) الآية ٥٥ من سورة النور .

الأرض ، اللائق بخليفة أكرمها الله .

إنَّ الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لاعلى الهدم والإفساد ، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنية لاعلى الظلم والقهر ، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لاعلى الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان .

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور ، وينحدرون بها إلى مدراج الحيوان ، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض ، وإنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى بهم غيرهم ممن يسلطون عليهم لحكمة يُقدِّرها الله[1] اهـ .

انظر إلى حياة المسلمين وقلّب صفحات التاريخ بدءاً من غزوة بدر إلى يومنا هذا ؛ تجد حقيقة هذه الحتمية ونتيجتها .

هذا الوعد ليس وعداً بشرياً ، فإنَّ الوعد البشري ظني الوقوع ، ولكنه وعد إلهي ، ووعده ناجز التحقيق والوقوع : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾[2] .

لقد حقق الله وعده لأمته ، وقد ذكر الرسول ﷺ عندما قال : «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشرقها ومغربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها»[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ٤٤٥٢٩ .

(٢) الآية ١٢٢ من سورة النساء .

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم ١٦٣٤٤ .

ومعنى زوي لي أي : إني رأيت الأرض في زاوية ، تكشف لي كل شيء فيها ، وإنَّ ملك أمتي سيصل إلى ما رأيت من الأرض .

لقد مكَّن الله الدين للمسلمين الأول عندما عبدوه حق العبادة ، وكانوا رسل خير للبرايا ، همهم الأول نشر الدين وهداية الأمم إلى دين الله .

فبدأ الإسلام بقِلَّةٍ قليلةٍ ، ثم قامت دولته في المدينة ، ثم اتسع حتى دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام .

وهذا التمكين يكون منحة من الله بشروطه التي ذكرها ؛ لابالجبروت والكبرياء .

عندما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً وحوله رايات المهاجرين والأنصار وخلفه عشرة آلاف مقاتل ، رأى أبوسفيان هذا المجد والملك ، فقال للعباس وكان واقفاً بجانبه ينظرون إلى الأفواج فوجاً فوجاً ، فقال : لقد أصبح لابن أخيك ملكاً .

قال العباس : إنها النبوة[1] .

ثم اتسع حتى وصل إلى حدود الصين شرقاً وجنوب فرنسا غرباً ، وتبوأت الأمة الإسلامية السيادة على العالم كله ، وهزمت دولتين عظمتين ، أذاقتا البشرية صنوفاً من الحرب والدمار ، وبعد هذا الإقبال أصابها إدبار ، فانحسر الإسلام عندما اشتغل المسلمون بخلافاتهم ونزاعاتهم ، فسلط الله عليهم بلاء من عنده ، فجاءت جحافل الصليبيين إلى عقر دارهم ، ثم تعرضوا لهجوم المغول ، واليوم نرى نتيجة هذا الأمر من ضياع المسلمين

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤٤٣ .

وإخلادهم إلى الأرض ، وتضييعهم شريعة ربهم ، فمزق وحدتهم ، وتعرضت الأمة إلى جروح دامية ، وضربات قوية ، وسياط ربانية .

لقد سقطت الخلافة الإسلامية في استانبول ، وقسمت البلاد الإسلامية ووضع ذلك - الورم - الخبيث في قلب الأمة ، فحولت الأرض المباركة إلى لعبة يعبث بها قتلة الأنبياء والرسل ، وصُفعت الأمة على خدها من قبل عدوها ، ثم قدَّمت الخد الآخر لتتحمل الصفعة فوق الصفعة ، فُفتح جُرْح في فلسطين ، وآخر في الشيشان ولبنان وفي البوسنة وكوسوفا وغيرها من بلاد المسلمين ، والمسلمون نائمون في بحار الغفلة والتيه .

نعم قد تكون أمم أخرى - غير الأمة الإسلامية - تنال التمكين والاستخلاف في الأرض وحالها الكفر والعصيان ، والاصطدام مع فطرة الله بالابتعاد عن منهجه عقيدة وعملاً ، كما هو الحال في بلاد الغرب وهذا لايتعارض مع قول الله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ . . . . . .** ﴾[1] .

لأنَّ من سنن الله الربانية في معاملة الكافرين أن يفتح عليهم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[2] ، وهو استدراج لهم قال تعالى : ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[3] .

أما أمة الإسلام فإنها تعامل بسنة خاصة بهم من عند الله ، فلايمكنون إلا

---

(١) الآية ٥٥ من سورة النور .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

إذا حققوا الإيمان بالله وإقامة شرعه ، فإذا انحرفوا زال منهم التمكين ، لأنَّ الله لايريد أن يزيدهم انحرافاً فعند ذلك تأخذهم سنة الكافرين[1] .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[2] .

فمن سنته أنه يسلب عنهم التمكين إذا انحرفوا عن منهجه حتى يعودوا فيتذكروا سوء أفعالهم ، فيكون سبباً في تبصرهم وتذكرهم وتوبتهم .

إنَّ وعد الله بالتمكين ليس مستحيلاً بل أمر قطعي نؤمن به ، فقد أتى حينٌ من الزمن على الأمة الإسلامية عاشت في أمن وأمان ، وعزلت الأمم المريضة ، وهزمت جيوشاً ذات قوة ومنعة ، وانطفأت الأديان الأخرى ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾[3] .

وقد ظهر دين الله – الإسلام – على الأديان السماوية كلها ، وقد تحقق وعد الله ، وبقي محققاً وواقعاً ما دام المسلمون متمسكين بشريعتهم وعقيدتهم .

ووعده ليس مُدَّخراً لجنس من الأجناس ، أو في بقعة من بقاع الأرض ، بل هو محقق لكل من يقيم الشرط الذي ذكره الله في قوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ .

---

(١) واقعنا المعاصر بشيء من التصرف ١٨٢ .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الأنعام

(٣) الآية ٩ من سورة الصف .

ألم يفتح المسلمون الشرق والغرب وأزالوا الكفر ، وحطّموا طواغيت الظلم والاستعباد ، ونشروا العدل والمساواة في الأرض ، في فترة زمنية لاتتجاوز نصف قرن ، إنَّ أي أمة من الأمم البشرية تحقق رسالة الإسلام من تحكيم وعبادة ودعوة يمكن الله لها الاستخلاف كائنة ما تكون ، فقد أعطى الله الملك لبني أمية ، وبقي في أيديهم ما داموا محافظين على شرع الله والجهاد في سبيله حتى فتحوا المشرق والمغرب ، ولما أخلد أبناؤهم إلى الدنيا وزينتها ، سلب الله الملك منهم ، فأخذه بنو العباس فكان منهم أبوجعفر المنصور وهارون الرشيد رحمهما الله ، فلما تحوَّل إلى ملك عضوض ، وتركوا الدين وأعرضوا عن منهج الله ، سلّط الله عليهم عدواً - التتار والمغول- فأبادوهم وسلبوا ملكهم ، فأخذه بنو عثمان ونشروا الدين في الأرض ، ورفعوا رايات الجهاد حتى وصلوا إلى رومية وفينا ، وتحققت بشارة رسول الله ﷺ : «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ونعم الجيش ذلك الجيش»[1] .

ولما انتشر الفساد بينهم ، وانحرف الأبناء والأحفاد عن سير الأجداد سلب الله الملك منهم ، وبقي ملك المسلمين ممزقاً .

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] .

ولننظر الآن إلى حال المسلمين ، من ضعف وتمزيق وارتماء في أحضان الغرب من النصارى وغيرهم ، وانظر إلى انصراف بعض حكام المسلمين وتركهم تحكيم شرع الله إلا ما رحم ربي وقليل ما هم .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٣٣٥ برقم ١٨٩٧٧ ، والحاكم المستدرك ٤/ ٤٦٨ .

(٢) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

الباب الثاني

أسباب سقوط الأندلس

ويشمل عدة فصول :

الفصل الأول : الانحراف السياسي .

الفصل الثاني : التفرق والتشتت وعدم الوحدة .

الفصل الثالث : البذخ والترف .

الفصل الرابع : ذوبان الجنس العربي .

الفصل الخامس : الخطر الخارجي - الصليبي - .

الفصل الأول

الانحراف السياسي

من المعلوم أنَّ الله إذا أذن بهلاك أمة من الأمم كان لها أسباب وسنن في تدميرها ، وقد يطول أو يقصر مجيء أمر الله حسب خطِّ الانحراف الذي بدأت به الأمة .

لم يكن سببُ سقوط حكم المسلمين في الأندلس واحداً ، بل هناك عدة أسباب اجتمعت مع بعضها البعض حتى قويت فأدت إلى سقوط الحضارة فيها ، فضاعت الأندلس بعد حكمها ثمانية قرون .

ولعلَّ من أهم الأسباب التي نبدأ بالحديث عنها الانحراف السياسي وفساد الحكم ، الذي تغير عن خطّه الذي بدأ به ، ثم أخذ ينحرف قليلاً قليلاً ، ومع مرور مئات السنين ، أخذ الانحراف زاوية اكثر ميلاً ، حتى أذن الله بالهلاك .

لقد تعاقب على حكم الأندلس نماذج فذة من القادة والحكام المسلمين بدءاً من فتح الأندلس واستمرَّ عقوداً زمنية ، ويلاحظ في حياة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد صفحات مشرقة تذكرنا بماضي المسلمين المجيد ، فقد بين طارق للفاتحين القدوة المثلى التي يتحلى بها القائد المسلم ، قال في خطبته :

«فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي علي طاغية القوم -لذريق-

فقاتله إن شاء الله تعالي فاحملوا معي»[١] .

هذه صورة تُذكِّر بقيادة رسول الله ﷺ فقد ألقى كلامه ، ثم صدقه الفعل والعمل حتى صار قدوة لجيشه .

هذه النماذج أصبحت تقلُّ في الأمة الإسلامية كلما ابتعدنا زمنياً عن فترة الخلافة الراشدة ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أراد أن يقرر أمراً من أمور المسلمين جمع أولاده وأهله ، فقال :«إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإنما ينظر الناس إليكم نظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم وقع الناس ، وإن هبتم هاب الناس ، وإنه والله لا يقع أحد منكم في شيء نهيت الناس عنه ، إلا أضعِّفُ له العقوبة ، لمكانه مني»[٢] .

وكان لوجود الانحراف السياسي عوامل متعددة من أهمها ما يلي :

١ - قلة الوازع الديني لدى الحكام وكثرة معاصيهم وفجورهم .

إنَّ مسؤلية الحاكم كبيرة عند الأمة وأمام الله تعالى ، فهو ظل الله في الأرض ، وبصلاحه تصلح الأمة ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله ، فعلى الحاكم حمايه الشريعة والثغور من عبث العابثين وانتحال البطلين ، وقمع المبتدعين والزنادقة المرجفين ، ورفع راية الجهاد ، فإذا اتصف الحاكم بهذه الصفات انتقل صلاحه إلى الأمة .

ومن الأمثال السائرة بين الناس :(الناس على دين ملوكهم)والناس دائماً يتأثرون بأخلاق رؤسائهم وزعمائهم وحكامهم ، والناس تبع لهم في

---

(١) فنخ الطيب ١/ ٢٤٢ .

(٢) عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ص ٧٦ .

مجاراتهم ، والحكومات أسواق تجارية تعرض فيها أخلاق رجالها ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك كان الناس يتحدثون عن الأبنية والقصور ، فكان الرجل يلقى أخاه فيقول : ماذا بنيت؟ وإنَّ الناس في عهد سليمان بن عبد الملك رحمهما الله ، مشغولون بالزواج ، فيلقى الرجل الرجل فيسأله كم تزوجت؟ ، وماذا عندك في السراري؟ وفي عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يلقى الرجل الرجل ويقول : كم وردك؟ ، وكم تقرأ من القرآن؟ ، ماذا صليت البارحة؟ ، وهكذا في كل عصر ، فإن كان الحاكم كثير الخير والصلاح كثر الخير ، وإن كان خمَّاراً كثر الخمر .

لقد جعل الله ثواباً عظيماً للحاكم العادل؟ قال النبي ﷺ ، «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمامٌ عادل»[1] فالحاكم العادل إذا بسط الأمن واشتغل بالدعوة ، وحكَّم شريعة الله في الأرض كان تمكيناً لحكمه ، وزيادة في عمر دولته ، واذا وجد للحق قوة تحميه وتذود عنه انتصر على الباطل ، ولهذا قيل :«السلطان ظِلُّ الله في الأرض يأوي إليه كل ضعيف وملهوف»[2] .

والظِلُّ تارةً يكون مانعاً للأذى كله كظلِّ الجدار الذي يقي من حر الشمس ، وتارة يكون مانعاً لبعض الأذى ، وأما إذا عدم الظل وتلاشى ، فسد الأمر ، وانتشر الظلم والقهر ، وعاش الناس في رعب وجور[3] .

فإذا ظلم في حكمه لم يعدل أحد من رعيته في حكم من الأحكام ،

---

(١) رواه البخاري فى صحيحه باب فضل من ترك الفواحش رقم ٦٤٢١ .

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ٣٥/ ٤٦ .

وإن عدل لم يجسر أحد على الظلم .

وقد جُبلت النفوس البشرية على الخوف من السلطان لأنَّ القوة بيده ، قال عثمان (رضي الله عنه) : «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، وفي عهد الخلفاء الراشدين بلغ الصلاح السياسي ذروته ، وكانت فترة عمر بن الخطاب في حكمه منحة إلهيةً للأمة الإسلامية ، وحجة على الحكام من بعده ، فقد أخذ بمبدأ العزيمة مطلقاً على كل صغيرة وكبيرة في أمور الدولة ، يعين الولاة من نفسه ، ثم يسأل عن سيرتهم وعدلهم بين الناس .

نعم جاء حكام بعد الخلفاء الراشدين كانت سيرتهم قريبة من سيرة عمر ، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع الخير من كل أطرافه ، فكانت سيرته في الحكم نموذجاً عالياً للحاكم العادل في الأرض .

وإنَّ أهم شيء في تاريخ الأمم والحضارات الجهاز السياسي في الدولة ، وإنَّ مقالة عثمان (رضي الله عنه) : «إنَّ الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» ،لايحتاج لها في عهد أبي بكر ، لأنَّ الناس كانوا منفطرين على الخير وقريبين من نبع النبوة ، فلما جاءت خلافة عمر ، بدأ الناس يفتنون بمظاهر الدنيا وزينتها ، فاحتاج الأمر إلى سلطان قوي يؤثر في قلوب الرعية ، ويعيد الأمة إلى معينها الصافي ، لأنَّ الوازع الديني بدأ يتغير .

سأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ، فقال : «لأن أبا بكرٍ وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك»[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٩٦ .

يشيـر بذلك إلى الوازع الديني الموجـود في قلوب المسلمين والفرق في نسبة الالتزام الديني بين خلافة عمر وعلي ، وتفاوت الرعية في ذلك .

وقد وضعت الشريعة الإسلامية ضوابط في اختيار الحاكم فصّلها فقهاؤنا في كتبهم ليس هذا محلها ، ولكن الذي نريد أن نعرفه أن اختيار الخليفة يكون من قبل الناس ، وليس هو ملكاً وراثياً ، وليس ثمة خلاف بين مسمى الحاكم خليفة أو ملكاً ، المهم أن يكون تعيينه اختياراً من قبل الأمة بعد تحقق الشروط الإمارة فيه ، وهكذا تم لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فكانت بيعتهم من قبل الأمة اختيارياً ، وقد كانت الشروط محققة في الجيل الأول ، ثم بدأ الانحراف نسبياً لكن بقيت أكثر الشروط محققة ، ما عدا اختيار الحاكم فتحوّل إلى ملك وراثي .

كانت العلاقة بين الحاكم والرعية في عهد الخلفاء الراشدين علاقة الأب الرحيم بأولاده يخدم مصالحهم ، ويبذل الرخيص والغالي لإسعادهم يدفعه لذلك الرحمة والشفقة والمحبة والإخلاص ، لا بدافع الوظيفة فهناك المواقف الرائعة التي تجلت في عدل الحكام ، فعمر رضي الله عنه وقف مرة على المنبر أمام الأمة وذكر قضية من قضايا الدين ، فعارضته امرأة ، وصححت موقفه ، قائلة له : ياأمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ، قال : نعم ، فقالت : أكتاب الله أحق أن يتبع أو قولك ، قال : بل كتاب الله ، قالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** ﴾[1] .

فقال : «أخطأ عمر ، وأصابت امرأة» .

---

(١) سورة النساء آية ٢٠ .

ولم يجد الرجل حرجاً في رفع مظلمته للحاكم ، لأن باب الحاكم كان مفتوحاً للأمة ، فيأخذ المظلوم حقه ، ولو كان الخليفة خصمه ، وهناك العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وقفوا في وجه الحاكم بحكمة وموعظة حسنة ، فأثروا فيه وصححوا مواقفه ، وهذا كله بسبب الرصيد الإيماني العالي الذي كان في قلوب الناس سواءً كانوا حكاماً أو علماء أم عامة الناس .

جلس علي بن أبي طالب رضي الله عليه على كرسي القضاء مع خصمه اليهودي أمام القاضي شريح في درع سُرِق من علي ، فوجده مع اليهودي فقال القاضي : يا أبا الحسن ، فقال علي بن أبي طالب ، لماذا كنيتني ولم تكن خصمي .

وعلي رضي الله عنه خليفة المسلمين ، وبيده كل شيء فهو يُعين ويعزل ، ولكن كان الأمر شورى ، وليس استبداداً أو قهراً .

وقد عُرِف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان مُطّلعاً على سير الولاة ، مراقباً لأفعالهم وعلاقتهم بالرعية في كل أمور حياتهم ، فإذا وجد أو سمع انحرافاً أو خللاً في تصرفاتهم العامة والخاصة ، كان رده العزل .

بل لم يعرف عنه أنه ولّى أحداً من أقاربه خوفاً من الله أن تكون هناك محاباة لأحد منهم ، سوى النعمان بن علي بن عدي لحسن سيرته وتدبيره في أمور الحكم ، فعندما ولاه الإمارة ، شكاه بعض الناس لأمير المؤمنين أنهم سمعوا منه أبياتاً يقولها خفية في بيته بعيداً عن الرعية ، رغبة في تسلية النفس

وتحسين القول مما لم يفعله ، وهي :

ألا هلْ أتى الحسناءَ أنَّ خليلَها ... بميسان يُسْقى في زجاجٍ وحَنْتَمِ

اذا شئتُ غنتني دهاقينُ قريةٍ ... ورقّاصةٌ تجثو على كل منْسمِ

فإن كُنتَ ندماني فبالأكبرِ اسقني ... ولا تَسْقني بالأصغرِ المتثلّمِ

لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوؤه ... تنادُمنا في الجوْنقِ المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه ، فأرسل إليه رسالة يقول فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[1] .

أما بعد فبلغني أنك تقول : لعل أمير المؤمنين ، نعم والله إنه يسوءني ذلك ، فإذا بلغك كتابي فاعتزل الناس ، ولن نوليك أمراً بعده .

فجاء إلى عمر رضي الله عنه وقال : ما فعلت شيئاً مما قلت ، وإنما كان فَضْلةً من القول ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾[2] .

قال عمر رضي الله عنه : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً[3] .

(١) سورة غافر آية : (١-٣)
(٢) سورة الشعراء آية (٢٢٤) .
(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١١٩٣ .

إنَّ العدل والمساواة بين الرعية تعطي استقراراً للحكم وثباتاً في قلوب الأمة ، وكذلك تعطي قوةً وتمكيناً للإسلام ؛ وليست الشدة بالقوة والبطش ، ولكن القوة بإقامة شرعه ، وإحقاق الحق بين الناس ؛ قال عمر بن سعد : لايزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ، ولاضرباً بالسوط ، ولكن قضاءً بالحق ، وأخذاً بالعدل .

قال عبد الله بن المعتز : الملك بالدين يبقى ، والدين بالملك يقوى ، لذلك وجب إقامة إمامٍ يكون سلطان الوقت ، وزعيم الأمة ليبقى الدين محروساً به[1] .

٢-عدم اختيار الأصلح للحكم .

هذا الأمر انحرف قليلاً في العهد الأموي فتحول الحكم إلى حكم وراثي وهو بداية الانحراف وهو أول تغير فاجأ الأمة .

ربما يكون هناك عذر لدى الأمويين في جعله وراثياً ، وذلك درءاً للمفسدة ، وحسماً للنزاع الذي حصل ، ولأجل استقرار الأمة ، والشيء المشرف أنَّ الأمة الإسلامية بقيت متماسكة مترابطة ، بل زادت مساحة الدولة الإسلامية وكثرت الفتوحات حتى وصلت إلى جنوب فرنسا غرباً وبلاد الصين شرقاً ، وكان الأمويون يختارون الأصلح من أبنائهم للحكم ، مثل تقديم عمر بن عبد العزيز على أولاد سليمان بن عبد الملك . بعد ذلك طرأ الانحراف والوهن في نهاية الدولة الأموية حتى سقطت فأقام العباسيون دولتهم فركبوا خطَّ الانحراف مع الزيادة والتوسع فيه ، فجعلوا الحكم وراثياً يتولى بالدور ، ولو كان الذي يُعيَّن صبياً في العاشرة من عمره ، وهناك

(١) أدب الدنيا والدين ١٦ .

قصص مضحكة ومستغربة فى اختيار الخليفة حتى غدا رمزاً ليس له شئ إلا الدعاء له على المنابر(1) .

وخليــفــة في قــفـص	بين وصــــيف وبُغــــا
يقـــول مـــا قـــالا له	كـمــا يقـول البــبـغـا

هذا الانحـراف بدأ في بلاد الأندلس فـشـأنهـا شـأن غـيـرها من بلاد المسلمين ، بدأت في طور القوة ، ثم طرأ الانحراف والضعف .

دخل الأميرعبد الرحمن الداخل الأندلس ، فوجدها مضطربة كثيرة الثورات ، وذلك بسبب بعدها عن الدولة الإسلامية ، فأحكم قبضته ، وبسط حكمه عليها ، وهو أولّ أمير استقلّ بالحكم عن الدولة العباسية ، وأعلن نفسه أميراً ، ولم يتسمَّ بالخليفة تأدباً مع الخلافة العباسية ، وقامت دولته بين دول النصارى تحيطها من جوانب متعددة ، وقد استمرت فترة حكمه ثلاثاً وثلاثين عاماً ، وكان قوياً تقياً اشتهرت سيرته بالعدل والمساواة ، وكان مجاهداً لم يضع السيف فترة حكمه ، وهو الذي بني جامع قرطبة .

ومن أعماله الجهادية :

أنه عقد الألوية وجنّد الأجناد ، وأعاد الحق لأهله ، وكان ملوك الفرنج المجاورين له يخشونه ، وقد بدأت دولته من عام ١١٣هـ إلى ٤٢٨ هـ ، وانحدر جميع الخلفاء من نسله ، ومن صلاحه أنه اختار الأصلح من أولاده للحكم من بعده ، فاختار ابنه هشام وعهد إليه بالأمارة لما كان يتوسم فيه من الشهامة والدين ، وترك ابنه الأكبر سليمان .

---

(١) واقعنا المعاصر ص / ١٢٥

تعاقب على الأندلس حكام كثيرون كانوا أولي قوة وسلطان وتمكين ، مكّنوا دين الله فمكّن الله حكمهم مثل عبد الرحمن الناصر باني الزهراء ، استمرت فترة حكمه خمسين عاماً من ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ، ومن صرامته في العدل أنه قامت ثورة في الأندلس من البربر والصقالبة مناوئة للحكم ، فاستطاع الخليفة الناصر قمع الثورة والقضاء عليها ، وقد صدر الحكم من المجلس القضائي بقتل المشاركين في هذه الثورة ، وكان ولد الخليفة أحد المشاركين فيها ، فجاء ابن الناصر وولي عهده فسجد بين أقدام أبيه ، وقال : يا أبت بإمكانك أن تتدخل في المجلس لتوقيف الحكم لأجل أخي .

فقال :«يا بُنيَّ سأذرِفُ الدمعَ سخياً طيلةَ حياتي على ولدي ، ولكن لن أُضيّع وأُمزّق مملكتي لأجل ولدي ، ثم صدر الحكمُ وتمَّ قتله»[1] .

هذه نماذج فريدة كانت صفحات مشرقة في حياة بعض خلفاء بني أمية ، طالت فترة حكمهم ، فكانت تمكيناً للإسلام في بلادالأندلس .

بعد انتقال عبد الرحمن الداخل من دمشق إلى الأندلس بمغامرته المليئة بالمفاجآت ، بدأ بتأسيس دولته فانتقل معه كثير من العادات والسنن المتوارثة في بني أمية ، مثل الملك الوراثي في عقبة ونسله ، والبطش والقسوة للخصوم السياسيين المناوئين للدولة ، وهذا الداء كان متفشياً في الدولة الأموية والعباسية ، فلا ينبغي لأحدٍ معارضة الخليفة ، وإذا بدت معارضة ، فإنَّ الردَّ في منتهى القسوة .

---

(١) وقد وجد بخط الناصر رحمه الله : أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً . انظر : مختصر تاريخ العرب ٤٣٣ ، نفح الطيب ١/ ٣٧٩ .

لقد فطن الغرب لهذا الأمر ، فتجد في حياتهم كثيراً من تعاليم الإسلام ، فعندهم إبداء الرأي والاعتراض على الحاكم دون حساسية من أحد[1] . نعم الأمر يحتاج إلى صدر واسع يتحمل أخطاء وعثرات الآخرين ، ولكن في النهاية يتحوّل العدو إلى صديق حميم يكون نصراً للدولة ، وتمكيناً للحكم ، فالصبر والحلم والأناة يحول العدو إلى صديق ، كما يتحول الفحم الأسود إلى ألماس .

وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر ، فقال : « اسمعوا وأطيعوا ، فقال سلمان الفارسي : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة » .

سمع عمر رضي الله عنه هذا الكلام الجريء ، فلم يغضب ولم يهدد ، ولم يأمر باعتقاله وزجِّه في غياهب السجون ، ولم تحدث ضجة من قبل الجمهور ، والاعتراض ليس من وزير إنما من سلمان ، وسلمان ليس عربياً -لم يحصل على الجنسية- بل هو غريب في مجتمع غريب عليه ، ومع ذلك أوقف عمر بن الخطاب ، وسكت عمر واستمع لسلمان ، فقال مستفسراً من خلال دائرته ، إنه حاكم يستوضحه عن سبب اعتراضه وعدم السمع والطاعة .

قال : ولماذا؟

---

(١) نجد المجتمع الأمريكي الذي يزيد عدد سكانه على ثلاثمائة مليون ، وهو خليط من شعوب وقوميات مختلفة من بقاع العالم ، ولكن لا تجد فيه تعصباً لقومية أو ولاء لبلد سوى الولايات المتحدة الأميريكية ، والسبب فى ذلك تمسكهم بالقانون الذي يحاسب كل واحد فيهم علي تقصيره ، ولو كان أكبر مسؤول فى الدولة ، وكذلك تشجيع كل فرد فيهم على إبداعه وإنجازه مهما كان ولو كان ينتمى إلى أي أقلية ، فالناس أمام القانون سواءً لا فرق بين أسود وأبيض ، لذلك يعطى الشعب الولاء للدولة رغم تباين كبير فى أصول السكان وإنتمائه العرقى ، وهذا فقط داخل مجتمعهم ، أما خارج بلادهم فحدث بعدها عن ظلمهم للشعوب .

قال سلمان بثقة واطمئنان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البُرْد الذي ائتزرت به ، وأنت رجلٌ طُوال لا يكفيك بُرْدٌ واحد .

فلما انجلى الأمر لسمان ، وأنَّ البُرْد هو لابنه عبد الله آثر والده ، لأنه رجل طويل لا يكفيه بُرْدٌ واحد ، قال سلمان : الآن مُرْ نَسمَعْ ونطيع .

هذا الحوار الرائع الذي تمثله حضارة الإسلام بين الحاكم والمحكوم في غاية الهدوء ، يعترض سلمان ويقدِّم انتقاداً فيسمع عمر الانتقاد ، ولايستنكف عمر عن عدم الاستماع وعدم التوضيح ، تلك الصورة بُدِّلت وغُيرت لدى المسلمين حكاماً ومحكومين ، ولم يعد يستمع الحاكم من المحكوم سواء كان في دائرة صغيرة أو كبيرة ، فالاستبداد بالرأي أصبح أمراً مستألفاً لدى الحاكم ، ولم يعد الاعتراف بالخطأ ضمنياً ، ولو كان التصرف خاطئاً لدى القريب والبعيد .

ومما يؤسف أنَّ البطانة سرعان ما تلتمس الأعذار والتبريرات لخطأ الحاكم ، فالحاكم المسلم في الصدر الأول قبل أن يقدم على أمر أو رأي كان يجمع أولي الرأي ليأخذ بآرائهم ، بينما اليوم يُصْدِر بعض الحكام أمراً -ولو كان مخالفاً للشريعة- ثم يقوم علماء السوء بتبرير أفعاله وليِّ نصوص الشرعية لتوافق فعله .

إنَّ صحابة رسول الله ﷺ لم يخضعوا للرجال ، بل كانوا يخضعون للحقِّ ، ويحاسبون قادتهم على تصرفاتهم وأخطائهم ، يقولون كلمة حق عند سلطان جائر لا تأخذهم في الله لومة لائم .

أخذ الغرب اليوم حضارة المسلمين ، فكانت حياتهم في غاية الانفتاح بين الحاكم والمحكوم .

سقطت طائرة يابانية ومات جميع ركابها ، فما الذي حدث؟ ، لقد قدَّم رئيس شركة الطيران استقالته فوراً ، لأنه علم وأحسَّ أنه محاسب أمام أمته ، وهي وخزة في أحاسيسه .

كان الفساد السياسي في بلاد الأندلس في بدايته ، وكان الخط البياني في انحدار ، ولكن كان انحداراً خفيفاً ، ربما لم يظهر ظهوراً واضحاً أمام الخير والصلاح الذي كان موجوداً ، ولكن مع مرور الزمن ، وتعاقب السنين ، أخذ الفساد يزداد ، والخير ينحسر شيئا فشيئاً ، حتى غلب الفساد الخير ، وخاصة في السنوات المائة الأخيرة ، وهذه سنة الله عز وجل في سقوط الأمم والحضارات ، تبدأ قليلاً ثم يزداد ويعم ، حتى يغلب الشرُّ الخير ، وهذا ماحدث في سقوط الخلافة العباسية على يد التتار ، وفي سقوط الدولة العثمانية .

لقد جاء سقوط الأندلس تحقيقاً لسنن الله عز وجل ، وهذه السنن لاتحابي ولا تجامل أحداً من خلقه كائناً من كان ، قال تعالى : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ** ﴾[1] .

لقد شهدت بلاد الأندلس تحويلات سريعة ، في قضية الحكم ، فبدلاً من أن يختار الأصلح من الأسرة الأموية لتحكم ، تحول الأمر إلى قضية وراثية ، تؤخذ بالدور ولو كان صغير السن .

ومن فساده أنه تعاقب تسع خلفاء على الحكم في أربع سنوات ، بل بعض الخلفاء كانت مدة حكمه أربعين يوماً ، وبسبب هذا المنعطف المتردي والخلل الذي طرأ على نظام الحكم أصبح الخليفة رمزاً ليس له من الأمر

(١) الآية (٦٢) من سورة الأحزاب .

شيء ضعيف الهيبة بين رجالاته ووزرائه ، أما أمر الدولة فقد انتهى إلى الفسَّاق والسفلة الذين سيطروا على أمور الدولة ، فترُك الأمر لهم ، يُولّون ويَعْزِلون .

٣- القسوة في قمع الخصوم والتنكيل بهم .

ومن فساده واستبداده إبعادُ العلماء والفقهاء والتنكيل بهم ، وقد حدث في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن عندما أبعد العلماء ورجال الدين عن التدخل في السياسية ، ولما قام العلماء ضده بالتعاون مع أعيان قرطبة ورجالاتها ، وحاولوا خلعه ، كشف أمرهم فصلبهم جميعاً على شاطئ النهر أمام قصره بوقعة الربض ، نسبة إلى المنطقة التي تم فيها قتل العلماء[1] .

ومن المؤلم والمؤسف أنه قتل الفقيه يحي بن نصر القيسي الذي اشتهر بالورع والعلم ، وكذلك هروب الفقيه عيسى بن دينار الأندلسي ، ويحيى بن يحيى تلميذ الإمام مالك ، وراوي عنه الموطأ في الأندلس .

كان عمل الحكم بن هشام في غاية القسوة ، وما كان ينبغي للفقهاء القيام بمثل هذا العمل ، ولو حُلَّ الأمر بالتفاهم والموعظة والنصيحة لكان أقوم وأرشد .

نعم ينبعي أن يكون العفو والشدة كلٌّ في موضعه ، فلا عنف يؤدي إلى استهتار بأرواح المسلمين طمعاً في العفو الذي يصدره بعض الحكام ، ولاشدة تؤدي إلى العنف التي تنفر القلوب ، فينقلب الناس إلى أعداء للحاكم يمدحونه بألسنتهم ، وقلوبهم كاذبة في ذلك .

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٣٩ ، التاريخ الأندلسي ٢٤٢ .

وقد جعل الفقهاء القيام على الحاكم وفق ضوابط منها أن يروا كفراً بواحاً يأمرهم به ، وألا يكون خروجهم قد تسبب في حدوث مفسدة أكبر وأشد ، فإذا ترتب على قيامهم خروج مفسدة أعظم على الأمة والدين كان تركهم لذلك أسلم ، قال رسول ﷺ «وأنْ لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[1] .

إنَّ فساد الحاكم لا يعالج بالثورة عليه ، لا سيما أنَّ المجتمع لم ينصلح بعد ، ونسبة الفساد لا تزال أكثر وأعم من الخير ، فالصلاح يبدأ من الفرد ، ثم الأسرة ، ثم المجتمع ، وهكذا حتى يصل إلى الحاكم ، وبالمقابل فينبغي أن يكون ردُّ الحاكم فيه شدة وقوة من جهة ، وعفو وتسامح من جهة أخرى ومثله أمام رعيته كمثل الوالد أمام أبنائه ، فإذا خرج ابن على أبيه فإنه يعاقبه عقوبة ممزوجة برحمة الأبوة ، وليست عقوبة الانتقام والاستئصال ، وقد أثار رد الخليفة الحكم بن هشام الخصوم من قبل رجال الدين والعلم والفقه ، وازداد سوءه عندما عزل العلماء عن السياسة ، وأبعدهم من مجلسه ، وقرَّب أهل اللهو والشعر والغناء والطرب ، فصار مجلسه مجلس لهو وشراب ، ولا تسأل بعد ذلك عن ضياع المسؤولية لدى الحاكم ورجال دولته ، وانتشار الظلم بين الناس .

٤ - فساد رجال الدولة

كان من الأمر البديهي أن ينتقل فساد الحاكم إلى بقية رجال الدولة ، وقد ازداد الفساد في بلاد الأندلس في السنوات الأخيرة من الدولة الأموية من قبل الوزراء الذين تم تعيينهم من قبل الخليفة فصاروا يُولون ويعزلون

(١) رواه البخاري كتاب الفتن رقم ٦٥٣٢ .

دون الرجوع إلى الخليفة .

إنَّ الوزارة تحمل مسؤولية عظيمة من الحاكم ، فهي الذراع الآخر له ، قال تعالى : ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾[١] .

لقد عُرفت الوزارة في العصور الأولى بأنها تحمل عن الملك أثقاله ، وتخفِّفُ عنه أمور متابعة الدولة ، وينبغي أن يكون الوزيرمن أهل الدين والاستقامة والذكاء والفطنة حتى لا تُدلَّس عليه الأمور فتشتبه ، ولا يتموه عليه فتلتبس ، فلا يصح مع اشتباهها عزم ، ولا يصلح مع التباسها حزم[٢] .

ومن اطَّلع على سير الوزراء في العصور المتأخرة من سقوط الدولة الأموية في الأندلس وجدهم من سفلة القوم ، وممن عُرفوا بالظلم والقسوة ، وفرض الضرائب القاسية على شعوبهم ، بل كان فيهم من الشطار الذين لايعرفون إلا توسيع ملكهم وتشييد قصورهم ، وأما خيار الناس فقد انعزلوا ، وإذا كان الحال هكذا فلا تسأل عما يحدث في البلاد من ضياع وتمزق ، وانتشار الظلم وتسلّط أعدائها .

متى يصلُ العطاشُ إلى ارتواء	إذا استقت البحارُ من الرَّكايا
ومن يثني الأصاغر عن مُرادٍ	وقد جلس الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ ترفع الوضعاءِ يوماً	على الرُّفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافلُ والأعالي	فقد طابت مُنادمة المنايا

وازداد الفساد إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية وقيام ملوك الطوائف ،

---

(١) الآيات ٢٩-٣٢ من سورة طه .

(٢) انظر : الأحكام السلطانية ٥٦ .

حيث كان جُلَّهم من سَفَلَةِ القوم الذين يديرون الدولة ، يقول ابن حزم : «إنَّ محمد بن عبد الرحمن مَن ملوك الطوائف ، ولكنه في غاية السُّخْف وركاكة العقل وسوء التدبير ، رُزءَ برجل حائك يَعرف بأحمد بن خالد ، هو المدبرُ لأمره ، والمديرُ لدولته ، فماذا يُرجى بعد ذلك ، رجلٌ حائك يُدير دولة»[1] .

ولو أنَّ أرباب الفساد أحسُّوا بامتعاض العلماء وإنكارهم على جرأتهم بانتهاكهم حرمات الله لما تمادوا في فجورهم وعصيانهم ، ولكن كيف يتراجعون عن عصيانهم والمجتمع فتح ذراعيه لهم ، والبطانة حولهم من علماء السوء تبرر أفعالهم بالمدح والثناء ، وويل لمن يقدم نصيحة للحاكم ، لأنه تعود سماع عبارت التمجيد والتعظيم والثناء من قبل الوزراء والعلماء المقربين ، ونتج عن هذا كلّه ضياع الشورى من الحكام ، وظهور التسلط الفرعوني في استبداده وقهره مسيطراً على الشعوب من قبل ولاة الأمر ، بل إنك لا تسمع إلا صوتاً وحيداً : «أصبت وأحسنت» أما : «اتق الله في أمتك وشعبك وبلادك» فهذا غير موجود إلا مارحم ربي ، بل لا تجدها تقال لمسؤول في دائرة صغيرة ، فكيف لمن هو أكبر من ذلك .

إننا لا نسمع في مجتمعاتنا إلا الخطب الرنانة ، وعبارات المدح والثناء ، والقصائد الطويلة الكاذبة ، ولكن الفعل تجده سراباً .

لقد قالت إسرائيل في إحدى إذاعاتها : استمروا يا زعماء العرب في خطبكم ، واختلاق القصص والأساطير ، فإذا جدَّ الجد وآن الأوان ، علمتم ما هي إسرائيل[2] .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ٤٧٠ .

(٢) كان هذا بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧م عندمادخلت الجيوش العربية الحرب ضعيفة خالية من الإيمان تمجد العروبة والقومية ، وعلماء المسلمين ودعاتهم معلقون على حبال المشانق .

إنَّ الثرثرة الفارغة ، والوعود البراقة ، والدعاية والصحافة الكاذبة ، لاتقدِّم ولا تؤخر ، بل هي مضيعة للوقت والمال ، إنَّ العتاد الحربي ، وروح الفروسية ، وتجنيد الشعوب ، والاعتماد على النفس ، مع وضع مقالة أبي بكر : «أينقص الدين وأنا حي» هي السلاح الذي يرهب إسرائيل ، ويعيد مسرى رسول الله ﷺ .

مما أُثر عن رجلٍ حكيم من أهل فارس أنه نصح أحد ملوكهم ، فقال : «إنَّ الملك لا يتم عِزُّه إلا بالشريعة ، ولا قوام للشريعة إلا بالرجال ، ولاقوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل»[1] .

ولنا عبرة بالحضارات التي زالت وسقطت ، فقد سئل أبو مسلم الخراساني -وهو الذي وطَّد للدعوة العباسية أركانها- لماذا سقطت دولة بني أمية؟

فقال : لأنها قَّربت أعداءها حتى تأمن شرهم ، وأبعدت أصدقاءها ثقة بهم .

وللأسف لم يتحوَّل العدو إلى صديق ، ولكن تحوَّل الصديق إلى عدو .

إنَّ الحكم يحتاج إلى سياسة فيه تقريب العلماء والمفكرين والصلحاء والشرفاء ، ولو قام به الحكام لكان تمكيناً لهم وزيادة في عمر دولتهم ، ولكنهم لا يريدون ، لأنهم يسعون لتحقيق مصالحهم الشخصية الذاتية من متع وشهوات وملذات سواء كانت بالحرام أو بغير ذلك .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٠ .

يلاحظ النظام السياسي الآن في بلاد الغرب يعيش استقراراً ، وبغض النظر عن الدين الذي يدينون به ، ولكنه نظام سياسي فيه استقرار في البلاد ، وضع مصلحة الفرد أمامه ، مؤمناً بقيمته ، يحكم الشعب نفسه بنفسه من قبل مؤسسات .

نعم ليس هو الأنموذج للحكم ، بل إنَّ الحكم الإسلامي الذي جعل مصادره القرآن والسنة هو الأنموذج للحكم الصحيح ، ولو ظهر هذا الأنموذج الآن لانهارت أنظمة الغرب «وديمقراطيتهم» التي يدعونها أمام الحكم الإسلامي الصحيح .

إنَّ «الديمقراطية» التي يتحدث عنها الغرب تمارس مع شعوبهم وفي بلادهم ويحاربونها في البلاد الإسلامية ، والسبب في ذلك خوفهم من صعود نظام إسلامي ينادي بالعدالة المثلى التي تفضح عيوبهم ، ولذلك يساعدون النظم الجائرة في البلاد الإسلامية ، لأنها تقطع كل طريق يؤدي إلى صعود النظام الإسلامي ، فهي تنادي بالديمقراطية من جانب ، وتقطعها من جانب آخر بطرق غير مباشرة ، لأن نتيجة الديمقراطية في بلادنا أن تأتي بالنظام الإسلامي العادل ، فالسكان مسلمون ، والعقيدة واحدة ، والفكر واللغة مشتركة .

أصبحت الأندلس مفككة ومقسمة إلى دول صغيرة ، وقد وصل عدد الدول فيها إلى ست وعشرين دولة ، وصار عدد ملوكها كعدد دولها ، وكان الظلم والقهر والاستبداد متفشياً بين سكانها من قبل رجال الدولة ، ومعلوم أنَّ الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت

مسلمة[1] ، ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام ، وقد قال النبيﷺ :«ما من ذنب أجدرُ أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرَّحْم»[2] .

والسبب في سقوط الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ، وبقاء الدولة العادلة ولو كانت كافرة .

أنه عقوبة من الله يُعجِّلها في الدنيا ، ومن جهة أخرى أنَّ النظام العادل يتكاتف الناس حوله ، ويعطي الشعب ولاءه له فيزيده قوة وتماسكاً ، بينما النظام الجائر لايعطي الشعب ولاءه له ، فيتفكك ولايتماسك وينقلب الشعب عليه ، لذلك لا يشهد استقراراً ، ويدل على ذلك أنَّ النبيﷺ أشار لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين ، ونعلم أن الحبشة ليست قريبة ، وكان أقرب عليهم أن يقول لهم اذهبوا إلى قبيلة من القبائل العربية ، لاسيما أنهم من بيئة عربية وعاداتهم متشابهة .

ولكن الرسولﷺ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة لعدة اعتبارات ، من أهمها أنَّ الحكم في الحبشة يشهد استقراراً ، والشعب أعطى ولاءه للحاكم نتيجة عدله ، لذلك يبين السبب بقوله : «فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد»[3] بينما النظام القبلي لا يشهد اسقراراً ، بل فيه الظلم والجور والقسوة .

لقد ازداد الأمر سوءاً عندما سقطت الدولة الأموية ، وقيام وزرائهم بتعيين أنفسهم ملوكاً على أجزاء الأندلس ، فأصبح الولاة الذين تم تعيينهم في عهد الدولة الأموية ملوكاً ، وغدت الدولة الواحدة التي كانت تحكم

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ٢٨ / ١٤٦ .

(٢) رواه او داود برقم ٤٩٠٢ ، والترمذي برقم ٢٦٢٩ ، وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ١ / ٣٤٩ .

بخليفة أصبحت تحكم بست وعشرين ملكاً ، وكل مالك يتخذ لنفسه الألقاب :

ومما يُزهدُني فى أرض أندلس	ألقابُ مُعتصم فيها ومعتمد
ألقابُ مَملكة في غير موضعها	كالهرِّ يحكي انتفاخاً صورةَ الأسد

نحن لا نتفق مع قول الشاعر بأن نزهد فى أرض الأندلس نتيجة الأوضاع المتردية ، ولكنه يصف حالة الفوضى والتمزق فدعاه لمثل هذا القول .

وقد استمر الفساد من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دول ملوك الطوائف ، ولكن كان انحداراً أكثر وفساداً أعظم ، وعندما تعرضت البلاد للعدو الصليبي المجاور كان سقوطها مهيئاً تماماً ، فليس هناك الحاكم الغيور على العباد والبلاد ، وغدت البلاد كجسد أثقل بأمراض وأوجاع من كل جانب حتى صار مترنحاً متمايلاً .

٥ - انتشار علماء السلطان

مع ازدياد خط الانحراف فى المجتمع لدى الحكام كان من الأمر الطبيعى أن يُعمَّ الانحراف سائر طبقات المجتمع ، وكما مرَّمعنا أن الناس على دين ملوكهم ، فإذا صلحوا صلح سائر الناس وإذا فسدوا فسد سائر الناس ، وكان هناك علماء من الفقهاء والخطباء والوعاظ ، ولكن كانوا على صنفين :

فمنهم العلماء الورعون الذين نصحوا وبينوا الوضع المتردى في الأندلس ، سواء كان تذكيراً أو كتابة ، ومن هؤلاء ابن خلدون ، ولسان الدين ، يقول ابن خلدون : «ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة

تأميلكم أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه»[1] .

وكان علماء المسلمين الفطنين يدركون وضع الأندلس المتدهور ، بل علموا شبح المستقبل الرهيب لهذا البلد ، ويستشفُّون بقوة بصيرتهم النافذة ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا البلد الذى مزقته الحروب والأهواء ، وقد نصح ابن الخطيب أولاده بعدم الإسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس ، يقول :

«ومن رُزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهدد الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عُرضةً للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن يغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً أمام الندب الثقال[2] .

وهناك القسم الأكثر من العلماء وخاصة فى عصر ملوك الطوائف الذي ساد فيه الانحلال وعمَّت الفوضى الأخلاقية والاجتماعية ، حيث كانوا ركيزةً لملوكهم وأمرائهم من النفاق والكذب ، وذلك بتبرير ظلم الملوك والأمراء ، وما زماننا وأيامنا هذه عن حال هؤلاء العلماء ببعيد .

كان فريق من علماء الأندلس يتقلب فى قصور الأمراء يخدعون الناس باسم الدين ، وقد أغدق أولئك الأمراء عليهم العطاء حتى سال لعابهم ، فكانوا ألسنة المدح والثناء لهم .

يقول أبو مروان بن حيان فى وصفهم : «فقد خص الله هذا القرن الذي

---

(١) أزهار الرياض ١/ ٦٦ .

(٢) نفح الطيب ٢/ ٤٢٥ .

نحن فيه من اعواجاج الأمراء والفقهاء فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صُموت عنهم ، صُدْفٌ عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابطٍ في أهوائهم ، وبين مُستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية في صِدْقهم»[1] .

وكان من نتيجة لهذا الانحراف انتشار الفوضى والاضطراب في عهد ملوك الطوائف ، وعمت الفرقة والنزاعات بين بعضهم البعض ،

يقول تعالى : ﴿ **وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾[2] .

لقد استفاد النصارى المجاورون من حال المسلمين ، فوحّدوا بلادهم وجمعوا أمرهم ، وشكلّوا قوةً واحدة لتوجيه الضربة على الممالك المسلمة المجاورة ، فاحتلوا عدداً منها وهي : سبتة ، ومرسية ، وجيان ، فخاف ملوك المسلمين على مناصبهم وآثروا كسب رضى النصارى بدلاً من الوحدة فيما بينهم ، لذلك بدأ عرشهم الشامخ وحضارتهم المتألقة التي أنارت ظلام الغرب قروناً طويلة تنطفىء ، فكثر قطاع الطرق واللصوص وسفّاكو الدماء ، وذهب الأمن ، وخيم الخوف والهلع ، وذهب أهل الرأي والعقل ، وتولى الأشرار قيادة البلاد ، وحلّتْ فيها سنن الله ، قال تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمنةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتيها رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[3] .

---

(١) الذخيرة ٣/ ٤٢٥ .

(٢) سورة الأنفال آية (٤٦) .

(٣) سورة النحل آية (١١٢) .

يقول الشاعر :

لا يُصْلحُ الناسَ فوضى لا سَراة لهم ولا سـراةَ إذا جُـهـالُهم سَـادوا

تُهدىَ الأمورُ بأهل الرى ماصَلَحت فـإنْ تولّت فـبـالأشـرارِ تنقـادُ

يقول ابن حزم فى وصف ملوك الطوائف المسلمين :

«والله لوعلموا أنَّ فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدُّون النصارى ، فيمكِّنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلَوْها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعنَ اللهُ جميعهم وسلّط عليهم سيفاً من سيوفه»[1] .

وفى الحقيقة لم يكن هناك رجلٌ واحدٌ مقصرٌ ومسؤلٌ عن ضياع الأندلس ، ولكنها مجموعةُ أسباب اجتمعت فكان فسادُ الحكم أشدَّها وأخطرَها .

---

(١) نهاية ملوك الطوائف ٤٠٦ .

قال تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال ٤٦ .

وقال الشاعر :

كونوا جميعاً يا بنيَّ إذا اعترى

خطبٌ ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماحُ إذا اجتمَعن تكسُّراً

وإذا افترقْنَ تكسَّرت أفرادا

الفصل الثاني

التفرق والتمزق وعدم الوحدة

لقد أصاب بلاد الأندلس حكاماً ومحكومين جملة أمراض استعرضت فيما سبق أهمها وأشدَّها ، فكان الانحراف السياسي ضربة موجعة أدَّت إلى فتح ثغرات في وحدة البلاد وتماسكها ، وطبيعي أنَّ كلَّ انحراف بعد ذلك سيكون نتيجةً حتمية للانحراف السياسي الذي بدأ .

ومعلوم أنَّ الجسم القوي قد يحمل أنواعاً متعددة من الأمراض الداخلية ، قد لا تظهر ولا تبدو آثارها ، وذلك يعود إلى قوة الجسم ونشاطه ومقاومته ، ولكن في النهاية لابد أن يتأثر بأمراضه إذا ضعفت مقاومته ولم يتلقَّ العلاج النافع والعناية اللازمة .

لقد بُعث الرسول ﷺ للعرب خاصة والناس عامة ، وكان قدومه مهاجراً إلى المدينة رحمة للناس فيها ، فأسّس فيها دولته ، وكان سكانها مزيجاً من قبائل وأجناس متعددة ، وعقائد مختلفة ، فهناك الأوس والخزرج القبيلتان المتناحرتان ردحاً من الزمن ، حيث دامت بينهما حروبٌ مستعرة حصدت رجالاتهم ، ورمَّلت نساءهم ، فإذا خمدت سنةً من السنين ، عادت مرة أخرى لتأجج الأحقاد وتثير الضغائن .

وكانت قبائل اليهود متعددة ، وهم : بنوالنضير ، وبنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وكانت كعادتها في كل عصر تسعى لجعل جوِّ المدينة مضطرباً .

كان قدوم رسول الله ﷺ رحمةً لهم ، حيث أزال الفوارق والحواجز بينهم ، فصاروا إخوةً في الدين ، وتمخَّض عن ذلك قيامُ مؤاخاةٍ بين

المهاجرين والأنصار لم تحدث في تاريخ البشرية كلّها .

وذلك بسبب توفيق الله في جمع القلوب وتأليفها ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

إنَّ إثارة النعرات الجنسية أو الإقليمية دعوةٌ خطيرة تغرس الحقد والكراهية فى قلوب الناس ، وقد وضع الإسلام التقوى ميزاناً للفوارق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] ، وقال الرسول ﷺ «لا فضل لعربي على أعجمي . . . . إلا بالتقوى»[3] ، وردَّنا إلى ماضينا السحيق بقوله : «كلكم لآدم وآدم من تراب» ، ومن العجيب أننا نشهد مثل هذه الفوارق والعصبيات الجاهلية بين العرب والمسلمين فى أيامنا هذه باسم الوطنية أو التوطين ، أو استعمال ألفاظ فيها الحساسية بين النفوس البشرية ، وإنَّ مثل هذه الدعاوى أن تجرِّئ الناس على الاستهانة ببعضهم البعض وأكل الحقوق فيما بينهم .

لقد جاء سلمان الفارسي -وهو ليس عربياً- إلى مجتمع غريب عليه فى كلِّ شيء فى الشكل والدين واللسان ، وعندما دخل فى الإسلام وقف فى وجه الخليفة طالباً منه العدل بين الرعية ، فسمع الخليفة كلامه دون أن يسأله عن أصله وجنسيته .

وهل سقطت دولة بنى أميه إلا بأسباب من أهمها أنها قربت العرب

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٣ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) رواه الترمذي رقم ٣٨٩٠ .

وأبعدت العجم ، فتولّدت البغضاء والشحناء في قلوب الأعاجم ضدها ، وهل أذهب دولة بني عباس إلا تقريبهم الأعاجم وإبعادهم العرب ، حتى غدت دولة كسروية ، تحكّم التركُ في أمور الدولة يُولون ويعزلون دون تدخل الخليفة .

ومن الأمثلة أيضا على الاختلاف والنزاع عندما يكون قاصماً مفتتاً لوحدة المسلمين ومُدمّراً لكيانهم أمام عدوهم أنَّ شارل مارتل قائد الجيوش الأوربية التى انهزمت أمام جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي استعمل ذكاءه في التغلب على جيش المسلمين ، فخطب فى قومه قائلاً : «الرأي عندى ألا تعترضوا المسلمين الآن فإنهم كالسيل الجارف يجرف ما صادفه ، وإنهم فى إقبال من أمرهم ، وقد عقدوا نيتهم ، وأجمعوا أمرهم ، فأصبح الرجل منهم يُغني عن كثرة العدد ، واتّحدت قلوبهم ، فأمهلوهم حتى تمتلئ الأيدي من الغنائم ، ويتخذوا مساكن ويتنافسوا على الرياسة ويستعين بعضهم على بعض» .

لقد ظهرت بوادر الخلاف والشقاق فى جيش المسلمين فكان جيش عبدالرحمن الغافقي خليطا من العرب والبربر ، وقد بدأت النعرات والصيحات الجاهلية ، فالعراقي لا يستريح للشامي ، والشامي ينقم على اليمني ، وهذا قيسي وهذا يمني ، وهذا مُضري وهذا تيمي . . . . . . وبدأ الخلل والتفرق يشق وحدة المسلمين ، فتقدم الجيس المسلم الممزق بقيادة عبد الرحمن الغافقي لملاقاة جيش أوربا جنوب فرنسا ، ودارت معارك قاسية ، ولكن انتهت المعركة بهزيمة جيش المسلمين ، وقتل القائد عبد الرحمن الغافقي ، وتوقُّف المد الإسلامي جنوب فرنسا .

إنّ الغرب حاول تفتيت الخلافة الإسلاميه العثمانية عن طريق القوميات (الإقليمية الإسلامية) وذلك لضرب بعضها ببعض ، فجرَّ العرب القوميين لمساندة الحلفاء في إسقاط الخلافة العثمانية ، ونجحت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بطرد العثمانيين من البلاد الإسلامية ، ورحَّبوا بالبديل الذي قدّمه الإنكليز من « الجامعة العربية» و«الفكر القومي» ، وللأسف بعد مضي خمسين عاماً تبينت الشعوب أنها أمام جثة هامدة ، وأنَّ الفكر القومي نجح في إحياء العصبيات القبلية والطائفية ، وخاضت الأمة العربية حرباً ضد اليهود باسم القومية العربية ، فإذا بهم يهزمون أمامها ، وتقام دولتها فوق ثرى فلسطين بخيانات بعض القوميين .

وهنا قامت العصبية فى بلاد الأندلس نتيجة حتمية عن حال الخلافة الأموية في دمشق ، فمن الهنَّات التى أُخذت على الخلفاء الأمويين المتأخرين تقريبهم الجنس العربي ، وإبعاد الأجناس الأجنبية الأخرى .

ولما قدم طارق بن زياد فاتحاً الأندلس كان جيشه خليطاً من العرب والبربر ، ليس فيه من العرب إلا القليل ، ولما تم الفتح أرسل الأمويون قبائل من الشام إلى الأندلس لتعليم الناس ، وكان العرب مزيجاً من القيسيين واليمنيين وقبائل من الأردن .

لقد عاش المجتمع الإسلامي عيشة المساواة والعدل ، وقد أحبَّ الإسبانيون العرب محبةً خالصة لما رأوا من التسامح الديني والعدل والمساواة ، وشعروا بالفرق بين الحضارتين ، فكثرت المزارع وعمَّ الرخاء ،

وأمست قرطبةُ عاصمةَ الخلافة الأندلسية كعواصم أوروبا اليوم رُقياً وازدهاراً[1] .

ومع تعاقب السنين بدأت تظهر بعض العصبيات الجاهلية والنعراب الإقليمية بين العرب المهاجرين وبين البربر – وهم بدو المغرب – الذين قدموا مع جيش طارق ، ولكن كانت العصبية خفيفة لم تتأصل بعد ، ولكن مع مرور الزمن بدأت تزداد شيئاً فشيئاً ، لاسيما أنَّ هذا المرض انتقل من الخلافة في دمشق إلى الأندلس ، وأخذ العرب المهاجرون من مصر وسوريا يتوافدون على الوطن الجديد يحملون أمراضهم الاجتماعية مثل الخصومات القبلية ، والانتماءات الجنسية ، وبدأ النزاع يتسع والخصومات تستعر ، ويعود ذلك إلى عاملين هما :

- البربر الذين كانوا يبغضون العرب بغضاً شديداً ، ويقيمون الثورات في كل فترة ، وذلك بسبب بداوتهم وقساوتهم ، وظنوا أنَّ العرب ينازعونهم في الملك .
- المسلمون الأسبان الذين كرهوا البربرلوحشيتهم وقسوتهم وغلظة قلوبهم ، وكرهوا العرب لكبريائهم وترفعهم ، على الرغم أنَّ التعاليم الإسلامية تمحو المفاضلة بين الأجناس والألوان بقوله : (كلكم لآم وآدم من تراب) ولكن قليل من يَعِي هذا المبدأ ، لأنَّ المهاجرين أكثرهم من الطبقة العامة من الناس .

مع تقدُّم السنوات وتعاقبها ازدادت الفوارق ، وكان السبب فى ذلك ولاة الأقاليم الذين تم تعيينهم ولاةً على أجزاء الأندلس ، فقد أثاروا العصبية القبلية بين الناس ، وكان من نتائج عدم الوحدة والفرقة ما يلي :

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ٢٥٥ - ٢٥٦ .

١-اندلاع الثورات

من تتبع تاريخ فتح الأندلس إلى سقوطها يجد أنَّ هذا البلد كثير الثورات ، فكلما قامت ثورة واستعرت الحرب وتأججت الفتنة ، تقوم الدولة فتجنِّد لها كل شيء وما إن يتمَّ القضاءُ عليها حتى تقوم ثورة فى مناطق متعددة فى البلاد .

لقد ازدادت القبائل العربية التى هاجرت إلى الأندلس ، وازداد الطين بلّة تحيز الولاة لأبناء قبائلهم تعصباً لهم ، وكان من الإنصاف والعدل أن يحكموا بين الناس بالحق والعدل ، ولكن حُبهم لمناصبهم دعى كلَّ وال أن يتحيز لأبناء قبيلته ظلماً وجوراً ، فقامت ثورات مضطربة مثل ثوراتٌ آل الفهري ، واليحاصبة ، وبني مروان ، وبني قيس ، وبني الحجاج ، وبني عبدة ، وهي ثورات زعزعت الأمن والأمان فى الأندلس ، وكلّفت الدولة ميزانية كبيرة ، ولاشك أنه تمَّ القضاء عليها ، ولكنها ثآليل تخرج فى جسم الدولة كل فترة .

كانت أعنف ثورة مزّقت الدولة فتنة البرابرة التى عصفت بالدولة الأموية ، وقد قامت فى عهد الخليفة الناصر فقاومها وقمعها ، وعاش البربر فى مدة حكمه بالعدل والمساواة .

وقامت مستعرةً مرة أخرى فى آخر الدولة الأموية سنة ٣٩٣هـ بعد وفاة المنصور بن أبي عامر ، فغدت البلاد مسرحاً للفوضى ، وقضوا على الدولة الأموية حيث دخلوا قرطبة ، ونهبوا قصور الخلفاء ، وأسقطوا حكم بني أمية ، وانتهت الخلافة الأموية في الأندلس ، وقامت حكومة ملوك الطوائف .

ومن أشدِّ الحروب التي تمت فى أسبانيا ، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير ، الحرب الأهلية التي اندلعت في غرناطة بين ملوك بني الإحمر

وبين ملوك غـرناطة ، فعلى الرغـم أن العدو أصبح محـدقاً بهم ينتظر الفرص المهيـأة كان ملوك غرناطة يتقاتلون فيما بينهم ، وكانت حروبهم فصلاً في تعجيل المأساة وسقوط بلاد الأندلس ، فقد مزقت الحرب غرناطة حتى غدت المملكة رهين رحمة القدر ، ومما يؤسف أنَّ الحرب الأهلية كانت بين السلطان أبي الحسن وولده أبي عبد الله محمد حيث تآمر الأخير على التخلص من أبيه وعمه بالاتفاق مع ملك قشتالة النصراني ، وقد شغلوا بالحرب الأهلية التى أحرقت الأخضر واليابس ، وأذهبت مجدهم ، وانتهت بطرد الأب واستيلاء الابن الذي تمت على يديه سقوط غرناطة وتسليمها للنصارى والرحيل عنها[1] .

٢- حب الملك والانفراد به :

شهد العالم الإسلامي فى القرن الرابع الهجري دولاً ممزقة وتفرقاً بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه ، فكانت في تلك الفترة ثلاث خلافات :

الخلافة العباسية في بغداد ، متمثلة ببني عباس وهى التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية في دمشق .

الخلافة الفاطمية فى مصر والمغرب ، وكانت تتبنى المذهب الفاطمي ، وعاصمتها القاهرة[2] .

والخلافة الأموية فى الأندلس وعاصمتها قرطبة ، وكل خلافة تدعي أنها تمثل الخلافة النبوية ، وهى الأحق بالملك ، وكل واحدة تسعى للكيد والطعن بالأخرى .

---

(١) نهاية الأندلس ص ١٦٥ .

(٢) يرى كثير من المؤرخين أصحاب الفكر الثاقب والنظرة المتأنية كالذهبي ، وابن كثير والسيوطي وغيرهم أن الحكم الفاطمي الذي قام في مصر كان فكراً باطنياً مدمِّراً ، ومن ثم فإن أصحابه =

ومما يؤسف أنَّ حُبَّ الملك دعاهم إلى إقامة الحرب بينهم ، فالخلافة العباسية سعت مراراً للقضاء على الخلافة الأموية في الأندلس ، وحاول أبو جعفر المنصور أن يرسل كثيراً من أفراد جيشه للإطاحة بالحكم الأموي في الأندلس فلم يفلح ، ولم استتبَّ الأمر لعبد الرحمن الداخل ، ويئس من القضاء عليه قال : الحمد لله الذي جعل بيني وبينه بحراً .

وبقي الخلفاء العباسيون يحسبون لبنى أمية بين الحين والآخر حساباً ، وبالمقابل فإنَّ الأمويين كانوا يكيدون لبني العباس ، وحاول بعض خلفاء بني أميه عقد صلات صداقة مع دول الفرنج ، ليأمن شر جوارهم ، وليقوي نفسه ودولته ضد دولة بنى العباس .

أما الدولة الفاطمية فليست أسعد حظاً من جارتيها ، فقد نشرت مذهبها الشيعي في بلاد مصر والمغرب ،ولكن باءت محاولتها بالفشل ، رغم أن خلفاءها شيدوا جامع الأزهر ، ودرسوا فيه المذهب الشيعي قروناً زمنية .

إنَّ التمزق الذي حلَّ فى الدولة الإسلامية في القرن الرابع والخامس الهجري أضعف قوتها أمام أعدائها ، وهذا التمزق والتفرق حرَّك أطماع أعدائها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[1] .

وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾[2] .

وقال الرسول ﷺ :(عليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[3] .

= لايستحقون أن يطلق عليهم خلفاء فأسقوطهم من عداد الخلفاء ، وهو رأي له ما يبرره .

(١) سورة الأنفال ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٥ .

لقد سقطت بلاد الأندلس وانمحى الإسلام فيها ، ولكن سقوطها جاء حسب نتائج حتمية لسنن الله فى خلقه ، فأدبرت حضارة الإسلام بعد تألق دام قروناً زمنية ، وإدبارها كان بسبب تكاسل حكام المسلمين فيها ، وكان فساد الحكم السياسي الذي مزّق الدولة الواحدة إلى دويلات وممالك صغيرة أقصر طريق سهل لأعدائها السيطرة الكاملة عليها وإسقاط حكمها بعد أن دانت البلاد لحكم الإسلام ثمانية قرون .

إنَّ حدوث الهرم فى الدول والأمم أمرٌ طبيعى يحدث كما يحدث في الإنسان والحيوان ، وهى سنن الله في كونه البديع ، والانقسام في الأسر والدول هو بداية الخلل ، وأول الانحدار حتى يأذن الله بزوالها فى وقتها المقدَّر : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[1] ولكل دولة أمد ، والله يقدر الليل والنهار .

يقول ابن خلدون :

« اعلم أنَّ أول ما يقع من آثار الهرم فى الدولة انقسامها ، وذلك أنَّ الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ، ويستبدُّ صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ، يأنف عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه ، فربما ارتاب المساهمون له فى ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية ، واجتمع إليهم من يلحق بهم »[2] .

لقد حدثت مثل هذه القانون فى أزمنة وأوقات متعددة ، حدثت فى

---

(١) سورة الرعد ٣٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٦٧ .

دولة بني أمية فى أواخر طورها ، ومرَّت بها الدولة العباسية ، عندما قام بعض الخلفاء بقتل أخيه أو أبيه حُبَّاً في الملك لينفرد به ، كحال الأمين والمأمون .

وقد استفادت الحملات الصليبة من تفرق وتمزق الدولة الإسلامية ، فغدا الخليفة العباسي رمزاً ليس له إلا الدعاء على المنابر ، وقد تفرقت وتمزقت البلاد ، فجاءت الحملات الصليبية من أوروبا ، واحتلت البيت المقدس ، وبقي المسجد الأقصى في أيديهم ما يقرب من ثلاثة وتسعين عاماً ، حتي هيأ الله صلاح الدين الأيوبي الذي وحَّد البلاد تحت قيادة واحدة ، فأعاد للخليفة مكانته ليزيد من وحدة وتماسك البلاد ، وخاضت الأمة الإسلامية معركة حطين فى وجه الصليبين ، فإذا بهم يهزمون هزيمة نكراء ، وتنتصر الأمة نصراً مُفرحاً عظيماً .

وحدث فى الأندلس فى أواخر الدولة الأموية عندما استعان أحد الأمويين ببعض رعاء الناس على قتل أخيه الخليفة بعد عزله وانفراده بالملك ، ولما قال له أتباعه : نخاف عليك .

قال لهم : بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غداً ، وذلك رغبة منه بالخلافة ، وهو أمية بن عبد الرحمن ، وحدث مثله في حكومة ملوك الطوائف[1] .

نعم قد يتنبه كثير ممن له يقظةٌ فى السياسة ، فيرى مانزل من عوارض الهرم والخلل ما يمكن رفعه وعلاجه ، فيحاول أن يأخذ نفسه بإصلاح بعض الجوانب في دولته ، مثل الترف والبذخ ، ولكن يجد صعوبة ومشقة في ذلك فيقف عاجزاً أمام تيارات التثبيط والخمول وحبِّ الشهوات ، ولكن يرجع

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٦٧ .

حسب قوة إيمانه وخوفه من الله ، وقوة شخصيته ، وحزمه وصرامته ، ولكَمْ حَدَثَ مثلُ هذا التحول فى تاريخ الأمة من الفساد إلى الإصلاح ، ومن البذخ إلى الاعتدال أو الزهد .

أحدث عمر بن عبد العزيز انقلاباً فى دولته ، ونقلها نقلةً كبيرةً ، حيث اقتفى سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستطاع بقوة إيمانه وعزيمته أن يرجع الأمة إلى عهدها السابق ، ولو كانت مدة حكمه طويلة لدخلت أمم كثيرة فى الإسلام ، ولذلك طول فترة حكم الحاكم العادل عامل أساسي فى تثبيت الإيمان والإسلام في قلب الأمة .

لقد مرَّبنا فى مدة حكم عبد الرحمن الداخل حيث استمرت مدة حكمه ما يزيد على ثلاثين عاماً ، وكذلك الحال فى حفيده الناصر استمرت مدة حكمه خمسين عاماً ، نشر خلالها الأمن والعدل فى ربوع الأندلس ، ولعل فترة حكمه أزهى فترة شهدتها الأندلس ، حتى غدت قرطبة عروس البلاد تزدان بجامعاتها وعلمائها وشعرائها .

٣- سقوط الخلافة :

تشتت بلاد الأندلس ، وغدت ميداناً للفوضى والنهب والخوف ، وفُقِدَ الأمنُ فى كل شيء ، فالأمر خرج من يد الخلفاء ، وغدا الخليفة رمزاً أو صورة يُذكرُ اسمُه يوم الجُمع على المنابر ليس له من الأمر شيء ، وضعفت هيبته فى قلوب الناس ، فالأمر بيد الوزراء يُولُّون ويعزلون متى شاءوا ، وهو شبيه ماحدث مثلُ هذا فى آخر عمر الدولة العباسة .

كان من ضعف هيبة الخليفة تسلسل تسع خلفاء فى أربع سنوات من

قتل وعزل ، وتمرّد وخيانة ، بل كان الخليفة لا يزال صبياً فى أول عمره يؤتى به رمزاً ، ثم يُعزل ويؤتى بغيره ، حتى ملَّ الناس من هذه الفوضى .

ولما بلغ الأمر مبلغه ، أصدر وزراء الخلفاءمرسوماً يقضي بإلغاء الخلافة الأموية نهائياً ، وكان ذلك فى سنة ٤٢٨هـ .

كان القرارُ ضربةً موجعة ، وشرْخاً عميقاً فى تاريخ الأندلس ، وهو انحدارٌ شديد نحو السقوط ، ونحن لن نقف قضاة نحاسب الأمة على ذلك ، ولكن اجتماع المسلمين تحت يد واحدة خيرٌ من الانقسام يجزِّء البلاد ويشتتها تحت ممالك صغيرة لا تستطيع حمايه نفسها ، وبإلغاء الخلافة ضعفت هيبة المسلمين فى قلوب دول النصارى المجاورة لهم فطمعت بالأندلس ، وتحرَّك ملوكُ الفرنج للقضاء على المسلمين وطردهم منها .

لقد عَيَّنَ الوزراءُ واحداً منهم ليكون حاكماً على الأندلس ، وهو ما يُعرفُ اليوم بالنظام الجمهورى ، ولما أرسل لولاة الأمصار يطلب منهم البيعة امتنعوا وتمردوا ، وقالوا : ما الفرق بيننا وبينك ، ومن أنت حتى نبايعك ، فاستأثر كلُّ وال بإمارته ولقَّب نفسه بألقاب فضفاضة ، فبعد أنْ حُكمت البلاد برجلٍ واحدٍ صارت تُحكم بملوك منحدرين من عائلات عالية ، مثل بنى جهور ، وبني هود ، ونبي حمود ، وبني الفطس ، وبني رزين . . . . . .

وا أسفاه على الأندلس التى انحدرت نحو الضياع والتمزق والزوال ، فمزقت إلى دول وممالك صغيرة ، وصارت تحكم بستة وعشرين ملكاً ، فيالها من مذلة ومهزلة فى تاريخنا المشرق .

قال ابن حزم :

«فضيحه لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام ، يُسمَّى كلٌّ واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويُخطبُ لهم فى زمن واحد ، أحدهم فى إشبيلية ، والثانى بالجزيزة الخضراء ، والثالث بمالطة ، والرابع بسبتة[1] .

لقد أصاب الأندلس إدبار بعد إقبال فسقطت تحت شيع وفرق من ملوك ظلمة ، وافترقت كلمتهم ، وصار عمال الولايات وقضاتها يحاولون نعْتَ أنفسهم بأضخم الألقاب لاستبدادهم بالأمر دون غيرهم ، فترنَّحت البلاد ، وتثاقلت بكثرة أمراضها ، وأصابها ترهل .

قامت فى الأندلس صيحاتٌ من قبل العلماء والفقهاء تدعو إلى الوحدة وجمع الشمل ، وتصدَّر لها علماء وفقهاء مخصلون ، فمنهم العلامة القاضي أبو الوليد الباجي فقد جاهد جهاد المخلصين فى وحدة الكلمة ، وجمع الشمل وتوحيد البلاد ، حيث طاف مدن الأندلس وقواعده يحث على ذلك ، وقد قام بهده الدعوة لما رأى من الخطر المستطير الذي داهم البلاد ، وقد أثَّرت دعوته وأعطت نتائج إيجابية ، فخاض المسلمون معركة الزلاقة وهزموا الصليبين .

ومن العلماء الذين سعوا لوحدة البلاد وتبصير المسلمين العلامةُ الفقيه ابن حزم الأندلسى ، والقاضي الفقيه أبو الوليد محمد بن رشد ، ولكن ذهبت هذه الجهود أمام تعنُّت الحكام وانشغالهم بمتعهم الخاصة فى قصورهم بين جواريهم ولهو هم وشرابهم وطربهم لاهين غافلين ، فكانت صيحات

(١) نهاية الأندلس ١٥٦ .

العلماء صارخة ولكنها كانت ضائعه لم تَلْقَ استجابة من الحكام .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

٤ - ظلم ملوك الطوائف فيما بينهم

ظهر ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية فى بلاد الأندلس ، وكان عددهم ما يقرب من ستةٍ وعشرين ملكاً ، حيث قسَّموا البلاد ، وتنازعوا فيما بينهم ، فاختلفت قلوبهم ، ودبَّ الحقدُ والبغضاء فيما بينهم ، وطمع بعضهم ببعض ، بل أصبح كلُّ ملك يتطلع بشفاه متلمظة إلى مملكة جاره حسداً يتربص به الدوائر حتى ينقض عليه فيستبيح بيضتهٌ حسب تبريرات مصلحية شخصية[1] .

تعرَّض ملكُ قرطبة عبد الملك بن جهور لتهديد من ملك «طُليطلة» المأمون بن ذي النون ، فقد طمع الآخر بقرطبة ، لأنها كانت يوماً من الأيام عاصمة الخلافة ، ومدينة العلم والعلماء ، ومركزاً تجارياً هاماً ، فتحركت أطماعه لغزوها ، فجهز جيشه ، وسيَّره للاستيلاء عليها ، فعلم ملك قرطبة بالأمر ، فأرسل إلى المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية ، فاستعان به وطلب منه أن يغيثه ، فأرسل إليه جيشاً قوياً ، ولما رأى ملك طليطلة قوة المعتمد بن عبَّاد فرَّ بجيشه ورجع من حيث أتى ، فشَكَرَ ملكُ قرطبة جيشَ المعتمد وقائدهَ على

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ٤٧٢ .

(١) ومثل هذا ماحدث من غزو العراق لدولة الكويت ، فاستباح أهلها وأرضها وأموالها ، دون الاعتبار فى حق الجوار وحق أخوة الإسلام ، وكان ذلك ظلماً جسيماً وشرخاً عميقاً فى قلب الأمة الإسلامية ، بل كانت فتنة كبرى وزلة عظمى ، وكارثة أحرقت الأخضر

هذا النخوة ، ولكن ما حدث ليس في البال ، حيث تآمر الجيش على عبدالملك ، فدخلوا مدينه قرطبة واحتلوها كاملة ، واستباحوا بيوتها وأهلها ، وأسروا الملك ووالده الشيخ المريض ، وزُجَّ بهما فى غياهب السجون .

ولما دخل الملك ووالده السجن أصابهم الذل والانكسار ، فبعد الملك والنعيم صاروا مأسورين مقيدين فى ظلمات السجن ، وهنا قال الشيخ الوالد أبو الوليد بن جهور لابنه عبد الملك : يا بنى إنها دعوة مظلوم أوصلتنا إلى هذا الحال بعد العزِّ الذي كنا فيه ، ثم رفعَ بصره إلى السماء ، وقال : اللهم كما انتقمت منا للمظلومين ، فانتقم لنا من الظالمين[1] .

ومن الظلم أنْ سِيق أولادُ الملك ونساؤه وبناته بصورةٍ ذليلةٍ مُرْعبه ، وغَدتْ أسرته سبايا فى يد المعتمد .

هذه صورة التآمر والحقد تمثل ما كان يحدث بين ملوك الطوائف ، فبدلاً من أن يرعى حقَّ الإسلام وحرمة الجوار ، إذا به ينقلب عليه طمعاً فى مملكته وشعبه .

ولو حدث مثل هذا الفعل من عدو كافرٍ لكان أمراً كبيراً ، فكيف بالذي قام به رجل مسلم ضدَّ أخيه المسلم ، لم يرعَ فيه حقَّ الإسلام وحق الجوار ، وبأي حق تُسْبى النساء ، ولكن رب العالمين يُمهل ولا يهمل ، وقد دارت عجلة الزمان دورتها المجلجة ، ويستجيب الله دعاء الرجل العجوز .

وبينما كان ابن عبَّاد مسروراً فرحاً في مملكته بما حققه من نصر وقوة حيث كانت تخشاه ملوك الأندلس ها هو يصبح في يوم من الأيام مهدداً من

---

(١) دول الطوا ئف ٢ / ٩٨ .

قبل ملوك نصارى الفرنج ، فيتعرض لخطر منهم فلا يجد أحداً يستنجد به من إخوانه ملوك الطوائف ، لأنه ظلمهم واستباح أرضهم ، فأرسل إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين يطلب منه العون والنجدة وأرسل إليه جيشاً ، فحارب الفرنج ، وتغلّب عليهم وكسر شوكتهم فى معركة الزلاقة ، ثم ضمَّ بلاد الأندلس إلى المغرب بعد أن أقصى ملوكها .

أخذ يوسفُ بن تاشفين الملك ابنَ عبَّاد مقيداً مأسوراً مع أسرته وأهله ، ووضعت فى يده القيود ، ثم زُجَّ به فى السجن فى منطقة أغمات من المغرب ، وساءت حالة زوجه ، فماتت حزينة لما جرى لها ، وفى السجن ، يقول ابن عبَّاد حزيناً ذليلاً[1] :

فيما مضى كنتُ بالأعياد مسروراً ... فساءك العيدُ فى أغمات مأسوراً

ترى بناتك فى الأطمار جائعةً ... يغْزِلْنَ للناس لا يملكْن قِطْميرا

بَرَزْنَ نحوك للتسليم خاشعةً ... أبصارُهن حَسيرات مكاسيرا

وصدق الله القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

ومن سوء حال فقره التى وصل إليها أنَّ إحدى بناته كانت تبيع الغزل فرآها أحد الرجال ، فتذكرت أنه كان شرطياً عند أبيها في فترة حكمه ، فحزنت لذلك وأصابها الخجل[3] .

---

(١) انظر : ديوان ابن عباد ص ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران (٢٦) .

(٣) انظر نفح الطيب ٢ / ٦١٨ .

كانت حالته التى وصل إليها عقوبةً ربانية بسبب ظلمه وتعدِّيه على حقوق جاره ، واستابحة أرضه وأهله وماله ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾[1] .

ليت ملوكَ الطوائف كانوا متماسكين فيما بينهم مع الحب والتفاهم ، ولكن الحقد والحسد والكراهية ، وكيد بعضهم لبعض أعمى قلوبهم ، والعجيب أنّ اختلافهم كان وسط أعداء أشداء يسْعْون للنيل منهم ، وكان ملوك الفرنج يراقبون اختلاف ملوك الدول المسلمة ، وقتال بعضهم ببعض ، ومن كيد العدو أنه كان يساعد بعض الملوك ليضعف بعضهم بعضاً ، حتى ينفرد بالأخير فيقضي عليه .

---

(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ الإسراء ١٦ .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص ٥٨

الفصل الثالث

الترف والبذخ

من الأسباب المؤثرة فى غروب شمس الإسلام عن الأندلس وذهاب ملكهم ، انشغالهم فى الترف والبذخ ، وإخلادهم إلى الأرض ، وتعلُّقهم بالدنيا ومتعها وشهواتها إلى حدِّ الموت لأجلها .

أقام المسلمون حضارة شامخة فى الأندلس ، واهتم حكامها الأمويون بالمدن ، خاصة مدينة قرطبة عاصمة دولتهم ، وشهدت الأندلس نهضة علميةً واسعة حتى صارت محلَّ أنظار الدول النصرانية المجاورة ، وكانت فترة حكم عبد الرحمن الداخل والناصر من أزهى عصور المسلمين فى الأندلس ، فقد عمَّ الرخاء الاقتصادي ، والثراء الفكري والعلمي ، ومع تعاقب السنين عقداً تلو عقد ، بدأ الناس يخلدون إلى دنياهم ويتمسكون بها ، ومن سلبيات هذا الإخلاد تثاقل النفوس عن الجهاد فى سبيل الله .

من المؤكد أنَّ الانحراف والميل لم يكن فجأةً واحدةً ، بل كان يمشي بطيئاً فى فترة زمنية طويلة ، حتى صار مألوفاً لدى النفوس ، بل ربما لم يكن له تأثيرٌ أمام رصيد إيمانهم فى بادئ ذي بدء ، ولكن ازداد تأثيره مع تعاقب السنين .

وكان لهذا البذخ والترف فى المجتمع الأندلسى نتائج سيئة عادت على النفس والمجتمع ، ومن هذه النتائج :

١ - الخواء الروحى :

إنَّ الترف والبذخ يجعل الإنسان مادياً يحمله على الانشغال بالماديات دون الاعتبار بآخرته ، بل يجعل قلبه خاوياً من حياة الروح .

ومن مساوئه أن يجعل النفس البشريه لا تُفكِّر فى الجهاد بل يصيبها الخمول والكسل والتعلق بالدنيا ، فسرعان ما تتحول النفس إلى نفس متثاقلة لا تتطلع إلى السماء بل يكون تطلعها إلى الأرض السفلية شأن المترفين الذين يُحبون الحياة الحيوانية ، لأنها حياة الديدان والزواحف ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[1] .

وهو سوطٌ ربانى ، إذا أذنَ الله بهلاك أمة من الأمم سلّط عليها داءً مُخدراً أذهب مجدهم وحضارتهم ، لا سيما أنه لا يوجد من يذكرهم بالله ويهز إيمانهم فى قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾[2] .

وهذا السوط الرباني قدرٌ من أقداره جاء جزاءً وفاقاً ، وليس أمراً إلزامياً ألزمه على الأمم والحضارات .

إنَّ النفوس البشريه إذا تشبثت بالدنيا وزخرفها أصبحت نفوساً لينة لا تستطيع الدفاع عن أهدافها السامية ، بل لا تُفكِّرُ بالجهاد أو الدفاع عن حرماتها ، وكيف تَفكِّرُ به وأصابها الداء المسكِر .

لقد فاض المال على المسلمين الأول فى خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما ، ولكن لم يفسد حياتهم ، لأنَّ الدنيا كانت فى أيديهم ، ولما تعاقبت السنين تراجع الجانب الإيماني وضعف أمام متع الدنيا وزخارفها ، فتحوّلت

(١) سورة الإسراء آية ١٦ .

(٢) سورة هوية آية ١١٦ .

الدنيا إلى قلوبهم حتى تعلقوا بها ، وصار المال مُفْسداً ومهلكاً .

بدأ الترف يظهر فى الأمة الأسلامية فى نهاية العصر الأموى ، وفى العهد العباسى ازداد بنسب عالية ، حتى وصل إلى حدِّ الإفساد .

٢- انصراف الحكام إلى التسابق ببناء وتشييد القصور

أصاب الأندلس مثل ما أصاب بقية البلاد من ترف وبذخ ، ولكن كانت نسبته عاليه فيها ، ويعود ذلك إلى قربها من بلاد الفرنج .

ومما يؤسف أنَّ بعض الخلفاء أخد يهتم ببناء القصور والإنفاق عليها بالمال حتى غدت القصور وتزيينها حديثهم اليومي ، وكان هذا الإنفاق على حساب تجهيز الجيوش وإعدادها ، وأول من اهتم ببنائها الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ، حيث صار بلاطه مثلَ بلاطات عظماء الملوك والأباطرة ، وجَنحَ به الترف والبذخ إلى اللهو والصيد ، فصار يُفضِّلُ مجالس الندماء والشعراء على مجالس العلم ، وكان خطأً واضحاً انحرف به عن سير آبائه وأجداده من قبل ، ومعلوم أنَّ هذا الانحراف بدأ تدريجياً في الدولة ، وهو بداية التغير الذى طرأ على المسلمين فى أسبانيا ، ثم بدأ يتلائم مع حياتهم بانحراف أكثر حتى صار أمراً مألوفاً .

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر رجلاً قوياً فيه صفات ومزايا متعددة من الخير والصلاح ، ورغم صلاحه فقد فكَّر في بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته مقتدياً فى ذلك بأبي جعفر المنصور حين بنى مدينة بغداد ، وعبد الله المهدي حين بني مدينه سامراء ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة ، وقد بنى الناصر مدينه وسماها باسم زوجته(الزهراء) ، ثم بنى فيها قصراً سماه (دار الروضة) ، وقد اتخذ مدينة الزهراء داراً لإقامته وكُرسياً لخلافته ، حيث

بنى فيها دوراً فسيحه للحيوان ومسارح الطيور .

وَصفَ المؤرخون حيطان قصر الزهراء بأنها كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وأنّ قواعده من الذهب والفضة ، وفى وسط القصر وضع صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وفي كل جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت فى حنايا من العاج والأبنوس المرصّع بالذهب والجواهر القائمة على سارات من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار ، وقد أطنبَ المؤرخون والرَّحالةُ فى وصف قصر الزهراء ، فقال المقري : لم يبق مثلهُ فى الإسلام البتة[1] .

وعندما جلس الناصرُ فى قصره جاء ملوك الفرنج يهنئونه على هذا البناء الذي سَحَرَ العقول ، فجاءه الوزراء ورجال الدولة مهنئين ،وقد جلس بجانبه القاضى منذر بن سعيد البلوطي ساكتاً مُفكّراً ، فقاله له الخليفة : لقد جاء الناس يهنئوني ببناء القصر ، وبقي أنت يا سعيد ، فماذا تقول يا أبا الحكم؟ .

بكى القاضى وانحدرت دموعه على لحيته ، وقال : «ما أظن أنَّ الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ المفضح ،ولا أنْ تُمكِّنَه من قيادتك مع ما آتاك الله وفضَّلك به على كثير من الناس حتى أنزلك منازل الكافرين والفاسقين ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[2] فوجَمَ الخليفةُ وبكى ، وقال : جزاك الله خيراً وكثَّر في المسلمين مثلك» .

---

(١) أزهار الرياض ٢/ ٢٦٧ .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٣ .

ومن صلاحه أنَّ المسلمين فى الأندلس قحطوا ، فأمر الملك القاضى سعيد بن منذر أن يستسقي للناس ، فلما جاءته الرساله مع البريد ، قال للرسول : كيف تركت الملكَ ، فقال : تركته أخشعَ ما يكون ، وأكثره دعاءً وتضرعاً ، فقال القاضى : سُقيتم والله ، إذا خَشَعَ جبَّارُ الأرض رحمَ جبارُ السماء ، ثم جمع الناس وصعد المنبر ، فقال : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة . . . . ثم أعادها مراراً ، فأخذ الناس فى البكاء والنحيب والتوبة والإنابة ، فلم يزالوا كذلك حتى سُقوا[1] .

كانت هذه صورةً مشرقةً فى حياة العالم سعيد بن منذر وموقفاً مشرقاً يَدُلُّ على خير وصلاحٍ لدى الخليفة ، لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلةٌ لحفظ المجتمع من الانحراف والفساد ، وهو وسيلةٌ لإصلاح الحاكم والمحكوم ، ولو وجُدت صورٌ مكررة مستمرة من قبل العلماء فى الأندلس لما تجرأ الحكام على مثل هذا التعسف ، ولكن المشكلة أنَّ العلماء يسكتون ، وبسكوتهم يزداد انفراج الانحراف لدى الحكام ، وهذا إذا لم توجد بطانة من علماء السوء تبرر أفعال الحكام ، أو قيامها بتفسير النصوص الشرعية حسب أهوائهم .

إنَّ واجب العلماء أن ينصحوا ويبينوا للحاكم أمر الله ضمن ضوابط شرعية بعيدة عن الانفعالات والمهاترات ، ولا ينبغي أن تُذْكر العيوب على ملأ من الناس ، فالأدب مع الناس جميعاً ومع السلطان أكثر ، ولكن لا يمنع ذلكَ من نصحه وتذكيره بضوابط شرعية .

وعندما تسكت الأمة عن أخطاء الحاكم يأتيها سوط رباني ، قال تعالى :

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٨٩ .

عن حال فرعون وسكوت شعبه عنه : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[1] .

إنَّ المجتمع فى العهد الأموى سواء فى الأندلس أو في غيرها أخذ ينصرف عن مراقبة الحاكم ونصحه ، وازداد هذا الأمر فى العهد العباسي ، وذلك بسبب الضربة القاسية التي وجهت من الحاكم ضد خصومه .

ومن صور البذخ فى الأندلس القصر الذي بناه المأمون ملكُ طليطلة ، «وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة ، وجعل فى وسطه بحيرة فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء إلى القبة ، بحيث ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها ، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه شئ ولا يصله ، وتوقد فيه الشموع ، فيرى لذلك منظراً بديعاً عجيباً»[2] ، وهذا مع جلوسه مع جواريه بالطرب واللهو والرقص .

إنَّ أموال الدولة أمانة في يد الحاكم جعله الله راعياً عليها ، فلا ينبغي أن ينفق درهماً أو ديناراً فى غير موضعه ، وإذا أنفقت أموال الدولة في الترف والبذخ والكماليات فهو بدايه الانهيار والزوال .

يقول السلطان محمد الفاتح في وصيته لابنه يُحذِّره فيها من صرف مال الدولة فى اللهو والعب ، قال :« ولا تصرف أموال الدولة فى ترفٍ أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم ، فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك» .

---

(١) سورة الزخرف ٥٤ .
(٢) نفح الطيب ١/ ٢٥٠ .

٣- الترهل بسبب التوسع فى النعم والإخلاد إلى الأرض .

إنَّ الترف كداء السُّكر الذي يُصيب الإنسان ، فينخر عظامه حتى تصبح لينة هشة غير قادرة على حمله ، فإذا تعرض لأدنى وقوع أو سقوط تكسرت عظامه ، وهكذا الترَّف والترهل فى النعم في حياة الأمم ، قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] .

ليس المقصود بالتشقف وخشونه العيش أن نجلس تحت الخيام ، ونشرب حليب الإبل ، ونشتغل بالرعى تحت أشعة الشمس ، ولكن علينا أن نضع الدنيا فى أيدينا ، فيكون همنا فى الدنيا نشر دين الله فى الأرض ، وتعليم أولادنا الحرص والمحافظة على نعم الله ، ثم تهيئة النفوس على الجهاد فى سبيل الله ، وأن نكون فى رباط دائم .

وعلى الدوله أن تكون فى رباط دائم ، وأن تحمل شعبها على ذلك ، ولكن انصراف ولي الأمر عن الجهاد والدعوة ، وانشغاله بالملذات والنعم جعله لا يفكر بشيء إلا بالازدياد من النعم والإكثار من الجواري في قصره للطرب واللهو .

عندما فتح عمرو بن العاص مصر ونقلها إلى دوحه الإسلام ، وهى أرض الحضارات القديمة ، وقد ملكها أعظم ملوك الدنيا ، ولو كان فاتح غير عمرو لكانت فرصه سانحة له ببناء القصور والإخلاد إلى الأرض ، ولكن عمرو وصَّى وصية القائد المشفق على رعيته ، فقال : إنكم فى رباط دائم

---

(١) سورة القصص آية ٥٨ .

لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوّف قلوبهم إليكم .

كانت وصية القائد المبصر الذكي الألمعي - وقد عُرف عنه ذلك فيما بعد - فهو لا يريد من الفاتحين الإخلاد إلى الأرض ووضع السلاح ، والاشتغال بالنعم والتقلب فيها ، بل لا ينبغي أن يخطر فى البال وضع السلاح ، وأن الحرب قد انتهت .

تُرى هل عمل بهذه الوصية حكام الأندلس ، وهل يعمل بها حكام المسلمين اليوم وقد سُلبت منهم أرض الإسراء؟

مما يؤسف أن ما خشيه في مصر قد وقع في الأندلس ، فقد تعرض المسلمون لمحن كثرة من أشدِّها محنة المال والترف والنساء والقصور ، قال تعالي : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [1] .

إنّ حياة الأمم والحضارات تبدأ بالتقشف والزهد والبطولات ، وتنتهي فى فترة تطول أو تقصر إلى حياة النعومه والترف والبذخ ، ثم تنتهي عند اللهو واللعب والطرب والمزمار .

يقول الشاعر محمد إقبال : «أنا أحكي لك قصه الفتوح وقصة الحكومات ورجالها فى لفظ وجيز ، إنهم يبدؤون بالسيف والسلاح ، وينتهون إلى المزمار والغناء ، تلك بدايتهم وهذه نهايتهم»[2] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤ .

(٢) نفحات الإيمان . الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله . ص٣٦ .

هذا ما حدث فى الأندلس ، وحدث مثله فى حكومة سلاطين المغول المسلمين فى الهند وفى الخلافة العثمانية .

إنَّ الترف والبذخ يقضي على روح الشباب فيضعف روح البسالة والشجاعة ، ينشأ الأبناء على اللهو ونعومة الحياة ، فيستنكفون عن الجهاد وإعداد النفس ، فيصير ذلك خلقاً فيهم ، وعلى قدر ترف الأمة يكون سرعة زوال ملكها وتعجيل سقوطها ، لذلك تعليم أبناء الأمة على خشونة العيش هو الأسلم ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «اخشو شنوا فإنَّ النعم لاتدوم» .

لقد انتصرت الجيوش الإسلامية بإيمانها بالله تعالى أولاً ونشر دينه ، ثم بإعراضها عن الدنيا وشهواتها ، لذلك كان الجيش المسلم يسير آلاف الأميال دون تعب أو كلل ، وكان الجندي المسلم فيه يحمل جُراباً من تمر يكفيه أياماً معدودة ، أما الجيوش الكافرة فكانت تحمل عربات مخصصة فيها ألوان متعددة من الأطعمة الفاخرة والملذات والشهوات ، فإذا تأخر طعامهم في المعارك ولّوا ظهورهم دون مبالاة ، لأنَّ أجسامهم تعلمت على النعم .

ولنا أن نسأل : هذه الأموال التي تنفق في تشييد القصور بهذا البذخ المطغي والإسراف المهلك ، ما مدى الضابط في عمارتها والإنفاق عليها؟

إنَّ المال إذا تُرك في الأيدي من غير ضابط ورقابة شرعية صارمة كان مهلكاً لصاحبه ، ومُردياً له في طرق الشيطان ، لذلك رأينا صورة الترف في حياة الخليفة الناصر عندما بنى الزهراء ، وأنفق عليها الأموال ، ولكن لم يترك يمر من غير تذكرة ، فقد وقف في وجهه القاضي سعيد بن منذر مذكراً له مشفقاً عليه من سخط الله .

٤ - انتشار اللهو والطرب والرقص والفجور

كان لابد من ظهور الترف نتائج سلبية على الفرد والمجتمع ، ومن النتائج السلبية ظهور الفساد بألوانه المتعددة مثل مجالس اللهو،الطرب والرقص والفجور ، وتزاحمت قصور الحكام في الأندلس بالجواري الفاتنات والمغنيات الساحرات ، وظهر الشعر الرقراق الذي يصوِّر لقاء الحبيب وحبيبه كابن زيدون وغيره ، وظهرت الموشحات الأندلسية الهابطة التي تُصَوِّر المجتمع الأندلسي في تلك الفترة الزمنية في لهوه ورقصه وفجوره ، ثم ظهر المغنون مثل زرياب حيث اشتهر عند خلفاء بني العباس ، ثم ترك قصور بغداد وذهب إلى الأندلس ، فاتَّخذه الخليفة عبد الرحمن مغنياً له في قصره ، وكان من شهرته أنه كان يحفظ من الغناء أكثر من ألف صوت ، وهو الذي أضاف إلى العود وتراً خامساً[1] ، وعاشت الأمة في لهوها ولعبها ورقصها ، تاركة الثغور من غير حماية ، والجيوش من غير إعداد وتدريب ، وبينما هي في سكرة فجورها أتاها أمر الله ليلاً أو نهاراً ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[2] .

ومن سنن الله أنَّ هذا الجو الموبوء المليء بالفساد مع استحلال حرمات الله أن يبدل الله عزَّهم بذل ، وأمنهم بخوف ، وغناهم بفقر ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[3] ، ومن عقوبات المعاصي

---

(١) انظر نفح الطيب ١/ ٢٥٠ .

(٢) الإسراء آية ١٦ .

(٣) آل عمران آية ١١٧ .

أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ولا حلّت به نقمة إلا بذنب .

وقالت زينب بنت جحش رضي الله عنها للنبي ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ، قال : «نعم إذا كثر الخبث»(١) .

٥- التبذير والإسراف

نهى القران عن التبذير والإسراف وجعل ذلك من صفات إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون الأموال في الباطل والشر والمعصية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾(٢) ، والتبذير هو الإنفاق في غير حق ، فلو أنفق الإنسان ماله كلّه في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق درهماً واحداً في غير حق كان مُبذِّراً .

كان المجتمع الأندلسي غارقاً في مستنقع ترفه وبذخه ، وأدى شيوع الترف والتبذير إلى تضييع الأموال في غير حق ، إما في المعاصي والفسق ، أو الاسترسال في المباحات الى حد المباهاة والفخر والخيلاء .

ومن صور التبذير في الأندلس ما فعله ملك إشبيلية- المعتمد بن عباد- مع زوجه اعتماد الرُّميكية أم أولاده ، فقد عاشت مع زوجها في رفاهية وعز فاقَ الوصف ، وحظيت عنده بمكانة لم تنلْها زوجة عند زوجها من قبل ، وكان لا يرُدُّ لها طلباً ، وفي يوم رأت نساءً من البادية يبعْنَ اللبن ، وقد شَمَّرن عن سُوقِهنَّ يخُضْنَ في الطين ، فقالت اعتماد لزوجها :

أشتهى أن أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء البدويات ، فما كان من المعتمد

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٣/ ٩ ، صحيح مسلم برقم ٢٨٨٠ .
(٢) سورة الإسراء ٢٧ .

إلا أن بادر إلى تلبية طلبها ، ولكن بطريقة مدهشة تحكي لنا صورة مذهلة عن حال المجمع الأندلسي من البذخ والتبذير المفرط ، حيث أمر بالعنبر والمسك والكافور ، فسُحقَ بماء الورد ليكون في هيئة الطين ، وأحضر القرب والحبال لاعتماد وبناتها ، فحملن القِرب والحبال ، ثم رفعن عن سُوقهنَّ وخضْنَ في طين العنبر والمسك والكافور .

لم يدُم الأمر طويلاً لابن عباد ، فانقلبت الأمور عليه ، حيث طُرِد من الأندلس وسُلبت منه قصوره ، وسيق مقيداً مع زوجه وبناته إلى بلاد المغرب ، ثم زُجَّ به في السجن مسلوب المُلك والجاه ، وأراه الله وبالَ فعله في الدنيا حيث رأى زوجه اعتماد وبناته بعينيه يكشفن عن سوقهن ليخضن في الطين في ثياب ذل ومهانة ، فقال :

يطأنَ في الطينِ والأقدامُ حافية　　　كأنها لم تطأ مِسْكاً وكافوراً

فقالت له اعتماد : ما رأيت منك خيراً ، فقال لها : ولا يوم الطين ، فسكتت[1] .

هذا أنموذجُ يرينا عاقبة التبذير ، وأنَّ الدنيا لا تدوم على حال ، وأنَّ الله يعاقب المبذر عن جنس عمله ، وأعظم عقاب للمبذر في الدنيا أن يسلبه الله نعمته التي يتقلب فيها ، وهذا من أعظم الأمور على النفس ، لأنَّ العيش في فقر لم يسبقه غنى يخفف على الأقل من شدة الفقر ، أما أن يكون الإنسان غنياً ثم يفتقر فإنَّ الأمر أشد ، فسيعاني من ثلاثة آلام : ألم الفقر ، وألم فقد النعمة التي ألِفَ العيش فيها ، وألم عدم الرضا بوضعه الجديد الذي آل إليه .

---

(١) نفح الطيب ٢/ ٦١٨ .

كان الناس في الأندلس منغمسين في شهواتهم ، والعدو متربصاً بهم يراقب أفعالهم عن كثب ، ولما أصبحت الدولة ضعيفة هشة ممزقة بسبب الخلافات والخصومات والثورات ثم ظلم العباد وانتشار الفسق والفجور ، وسوء حال الحكام الذين لم يهتموا بالبلاد ، فكانت غاية الواحد منهم ، قصرا منيفاً وجواري يرقُصْن أمامه .

لما أصبحت الدولة كذلك انقض الأعداء عليها فقوضوها وأزالوها من الوجود .

الفصل الرابع

ذوبان الجنس العربي المسلم

بقي المجتمع الإسلامي مُثقلاً بالأمراض الداخلية ، تنخر جسده من كل جانب ، وتُضْعف مقاومته أمام الضربات الخارجية ، وقد تعرض لفتن مزلزلة من الداخل هزت كيانها ، ومزّقت وحدته وتماسكه ، وكان يقاوم بما عنده من رصيد إيماني لدى العلماء والوعاظ والناصحين والمصلحين الذين لم يألُوا جهداً فى النصح والتحذير ، ولو تعرض أي نظام غير نظام الإسلام فى مجتمع من المجتمعات لمثل ما تعرض له المجتمع الإسلامى فى الأندلس لتهاوى وسقط منذ مئات السنين ، كما هو الحال فى المجتماعات الشيوعية فى وقتنا الحاضر التى سقطت وانهارت وهي فى ذروة نشاطها ، ولكن قيام المجتمع الأندلسي على العقيدة الإسلامية الصحيحة أخّر انهياره عقوداً زمنية ، ولكن عندما ضعفت مقاومته انهار كما ينهار جسد المريض المثقل بالأمراض .

لقد اختار الله رسالة محمد ﷺ على الرسائل السماوية كلها ، وقد أثبت صحابته بصدق إيمانهم وإخلاص سريرتهم تمسكهم بعقيدتهم ، فهم أعمق الناس علماً ، وأكثرهم جهاداً وإخلاصاً ، وقد انطلقوا بحرارة إيمانهم- التي أحسُّوا بها- يجوبون العالم لينشروا دين الله ، وليكونوا رسل خير وهداية للبشرية الغارقة فى ظلمات كفرها .

وشمخت حضارات فى زمنهم ، ولمعت مراكز مادية مغرية مثل حضارة الروم والفرس ، حيث جمعت فيهما مظاهر الأبهة والترف مايكون ذلك سبباً فى ميل قلوب الصحابة إليها لولا إيمانهم بدينهم . ولم يكن غرضهم الحياة

الدنيا والتمتع بشهواتها ولذائذها ، فقد شغلوا عن ذلك بهداية لناس وتذكيرهم بالله تعالى ، حيث زهدوا بالحياة الدنيا ، وابتعدوا عن التأنق والتكلُّف فى حياتهم ، همُّهم الوحيد الذى قضَّ مضاجعهم إنقاذ البشرية من كفرها ونشر دين الله بينها .

ولما رأوا حضارة فارس الفاتنة الساحرة ، وبأيديهم كنوزها الثمينة ، أعرضوا عنها ، وكان لسان حالهم : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

وقد تساقطت البلاد تحت مطارق فتحهم ، لأن إيمانهم كان أعلى وأعز عليهم مما رأوه ، فلم يتأثروا بغيرهم رغم وضعهم المادي البسيط ، ويعود ذلك إلى مركزهم القيادي ، ولم يقتبسوا من حضارات الأمم إلا المفيد الصالح كالصناعات وعلوم الحكمة والطب وأساليب الحرب ، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها .

وبقى الجيل الثانى محافظاً على صفات آبائهم ، وإن كان فيه انحراف قليل جنحوا فيه إلى بعض المتع الدنيوية ، ولكنه انحراف قليل أمام بحر إيمانهم .

فمن عوامل سقوط حضارة المسلمين فى الأندلس ذوبانهم فى ذلك المجتمع ، وذلك يعود إلى ضعف إيمانهم ، فبدلاً من أن يؤثروا تأثروا ، ويعود ذوبان الجنس العربي المسلم لأسباب منها :

١ - ضعف التربية الإسلامية .

عندما فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير بلاد الأندلس لم يكن الجيش

من جنس واحد ، بل كان خليطاً من أجناس متعددة من العرب القيسية واليمنية ، ،فيهم بنو كلاب ومحارب وهوازن وغطفان ومنهم كانت جمهرة الجيش العربى ، وفيه أجناس بربرية غير عربيه قريبة عهد بالإسلام ، ولم تكن هذه الأجناس قد تربت تربية نموذجية ، بل كانت تحتاج إلى مزيد من التربية حتى تصقل نفوسهم وتُهذَّب طبائعهم بالإسلام ، ولكن حاجة البلاد إلى الفتح كانت أسرع من ذلك .

ولم يكن دخولهم فى الأندلس كدخول الجيش المسلم فى بلاد الشام والعراق ، فلم تُذبْ الشعوب ذوباناً كاملاً فى العقيدة والدين ، بل بقيت بعض الطبقات الإسبانية محافظة على عاداتها ، وكان من المفروض أن ما بعد الفتح يبدأ العمل والدعوة إلى الله وهذا أشق وأصعب من ذاك ولم يتضح هذا فى البدء ، ولكن اتضح بعد مرور عقود زمنية ، فكلما مر عقد زمني زاد الانحراف ، واتسعت الفجوة .

ونلحظ بدايته عندما عُين أول وال وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد اندلعت الثورات وظهرت بعضُ حوادث التمرد والعصيان حتى تعاقب على تلك البلاد ستة ولاة فى عقدين زمنيين ، وهذا شيء مستغرب إذا ما قيس بالولايات الأخرى فى الدولة الإسلامية الأموية .

نعم لقد فتحت البلاد كاملة ، وقامت حضارة الإسلام عقوداً زمنية متعددة ، ولكن بدأ خط الانحراف ينحدر بمرور السنين ، وأخذ الجنس العربي المسلم يضعف أمام الإغراءات المادية ، والعادات الداخيلة على المجتمع المسلم ، لا سيما أن جذوة الإيمان ضعفت أمام التيارات المادية ، ولما جاء القرن الخامس الهجري ، بعد سقوط الدولة الأموية ، وظهور دول الملوك

والطوائف كان الجيش قد استبدل بصقالبة وبربر بدل العرب ، وقدَّم المنصور ابن عامر رجال البرابرة وزناتة فى الأندلس وأخَّر رجال العرب بل أسقطهم عن مراتبهم .

مع تعاقب السنين فسدت العصبية العربية ، وخاصة فى القرن الخامس الهجري ، وفني الجنس العربى أمام الأجناس الأخرى ، حتى لا يكاد يُرى العربى في المقامات العالية .

٢- التزاوج من النصارى

ومن الذوبان للجنس العربي المسلم التزاوج الذي انتشر بين الأسر المسلمة من النصاري ، حيث فضَّلت بعض الأسر المسلمة أن تكون أمهات أولادهم من الأسر النصرانية العريقة فى المجد والحسب ، فأخذ الدم العربي المسلم يضعف ، بل وصل الحال أن بعض زوجات الخلفاء من النصارى ، مثل الخليفة هشام المؤيد وُلِدَ من أم نصرانية ، وبعض أمراء بنى نصر-ملوك غرناطة-وُلِدوا من أمهات نَصرانيات ، وكذا السلطان محمد بن إسماعيل ، والملك محَمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية حيث كان يتكلم باللغة القشتالية ، ويلبس زي النصارى ، وكانت أصوله من أصل نصراني ، بل يعتز ويفتخر بأصوله[١] .

ليس الزواج من أهل الكتاب أمراً محرماً فى الإسلام ، ولكن الذي يخشى منه أن يتطبع الولد بطبائع أمه وأخواله ، وخاصة إذا بقيت الأم على دينها ، وكيف يُرجى لهذا الولد خير ، وقد نشأ فى جو القصور مع امرأة

---

(١) انظر الإحاطة بأخبار غرناطة ٢/ ٨٢ .

غير مسلمة انشغل أبوه بأمور الدولة عن متابعة ابنه وتوجيهه التوجيه السليم .

لذلك كثرت الجواري النصرانيات فى قصور الملوك ،ولا تسأل بعدها عن حقدهن وكراهيتهن للدين ، حيث كُنَّ معاول هدم من الداخل للجيل الجديد الذي كان مهيئاً لاستلام الحكم فيما بعد .

وقد أصاب هذا الداء دولة بنى العباس ، فدخل الجنس التركي فى أمور الدولة حتى وصل الحال إلى التحكم فى شؤون الخلافة ، فغدا الخليفة بين أيديهم يتصرف حسب ما يريدون ، وقد مرَّ بنا قولُ الشاعر :

وخليفةٌ فى قفص	بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له	كما يقول البغا

وقد كان عدد خلفاء بني العابس سبعةً وثلاثين خليفة ، ثلاثة منهم من أمهات عربيات مسلمات ، والباقون أماتهم غير عربيات[1] .

٣- التقليد الأعمى وموالاة الكافرين

لقد انتشرت عادات النصارى فى المجتمع المسلم فى الأندلس ، وأخذ اللسان العربي ينسحب أمام تيارات التفرنج ، وبدلاً من أن تكون اللغة العربية مسيطرة على اللسان كما كانت من قبل تراجعت وضعفت أمام االلغة الرومانية ، حتى غدت لغة الرومان لغة دارجة فى جميع طبقات المجتمع الأندلسي .

إنّ التقليد الأعمى والتبعية للغير يقضي على مقومات الأمة ويسلخها من مبادئها وقيمها وعاداتها ، وأمة من غير قيم ومبادئ أمة منسية في حياتها ،

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠ .

وما أخّر المسلمين اليوم فى حياتهم العلمية والاقتصادية والإدارية إلا التقليد الأعمى الذي سلخ الأمة عن أسس حضارتها وكيان عقيدتها .

لقد قدّمت اليابان والبلاد العربية نهضتهما فى عصرنا الحاضر ، ولكن أصبحت اليابان سيدة العالم اقتصادياً ، وذلك بسبب قوة اقتصادها وسلعها المرغوبة فى الأسواق العالمية ، وتقدمها كان بعد كارثتها النووية ، ولكن لم يمنع ذلك من نهضتها المتألقة ، ولم تنسلخ عن عاداتها وأصالتها وتراثها وقيمها ، بل العجب أنّ مادة تدرس لأطفالهم فى مدارسهم هى مادة التراث اليابانى يتعلم فيها الطفل كيف يتمسك بحضارته وتراث أمته .

بينما نجد أنّ البلاد العربية لا تزال متأخرة فى تقدمها العلمي والطبي تعاني من التخلف والفقر ، والسبب أنها لم تعترف بقيمها وتراثها ، وأصيبت بلوثة التقليد الأعمي .

إنّ الإسلام دين سماوي ارتضاه رب العالمين ديناً ناسخاً للأديان كلها ، وعلى المسلمين التمسك بدينهم والدفاع عنه فى جميع حياتهم ، ومن قوة تأثير الدين أنّ النبي ﷺ حرص أن يتميز المسلم عن غيره في مأكله ومشربه وحديثه بالتقاليد الإسلامية ، لأن التساهل فى ذلك يعني حُبَّ التبعية للغير والارتماء فى عاداته وبعدها محاكاته فى أفعاله .

إنّ اللباس والزي من العوامل المؤثرة في أخلاق الأمة في مجتمعها . وهو عنوان هويتها وأصالتها ، وقد قال بعضهم : إن القميص يسهم في تكوين القسيس ، ذلك أن اللباس يضفي على صاحبه روحه ، ومن المشاهد فى حياتنا اليومية أنه عندما يلبس الشخص لباساً رياضياً ، يشعر بأن روحاً رياضية سرت في جسده ، ولو كان ضعيف البنية ، وعندما يلبس لباس

العجوز يشعر بأن أثر ذلك يظهر فى روحه من حيث مشيته أو حركات أفعاله ، ولو كان شاباً قوياً[1] .

لقد بدأ المسلمون متأثرين بزي نصارى الأندلس ، وأخذوا يتشبهون بهم ، وهو دليلٌ على ضعفهم وانهزامهم ، فالضعيف يقلّد القوي ، وباتت الأمة تنكمش على نفسها أمام عدوها ، وبدأ الذوبان يسري فى المجتمع خلال عقود زمنية .

وأما موالاة الكافرين فخطرها جسيم على عقيدة الأمة وإيمانها بربها ، ولذلك حذَّر القرآن من مودة الكافرين ، لأنهم كفروا بالرسالة وتربصوا بالمسلمين الدوائر ، وأثاروا الفساد والفتن فكيف نميل إليهم ، وكيف نتودد لهم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾[2] .

خُذْ مثالاً من حياتنا ، لقد أُمرنا بقتل حيوان الوزع ، فعن أم شريك رضي الله عنها ، قالت : أمر رسول ﷺ بقتل الوزغ ، قالت : وقال : «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام»[3] .

وعلة قتله أنه كان ينفخ على النار التى أضرمها قوم إبراهيم لحرقه ، ليشتد حريقها ويرتفع لهيبها ، ونحن مأمورن بقتله ، لأنه ناصب العداء لنبي الله ، فكيف بحال الكافرين الذين كفرا برسالة محمد ﷺ ، وذبّحوا المسلمين

---

(١) انظر شروط النهضة . مالك بن نبي ص ١٣٣ .

(٢) سورة الممتحنة آية ١ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه . كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣١٨٠ .

في مشارق الأرض ومغاربها ، وطردوا المسلمين عن بلادهم وأوطانهم ، أليس معاداتهم وبغضهم من باب أولى ، قال تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[2] .

وقال : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[3] .

لقد وصل الضعف عند حكام الأندلس إلى موالاة النصارى والسعي لإرضائهم ، ولو على حساب دينهم وعقيدتهم في سبيل المحافظة على تثبيت حكمهم ، وما مصالحة العرب اليوم مع اليهود إلا مثال التخاذل والخيانة والانهزامية .

لقد وقف الشريف حسين رحمه الله مع الإنكليز وتحالف معهم ضد إخوانه مقابل وعود وأماني دغدغوا بها أحلامهم ، حيث أمّلوه أن يكون ملك العرب إذا أُسقطت الدولة العثمانية ، فلما تحقق ما كان يحلمون به من إلغاء الخلافة وإسقاطها ، انقلبوا عليه ونفوه خارج بلاده ، وقسموا البلاد العربيه إلى دول تحت وصايتهم ، لا تزال الأمة تعاني من آثار التقسيم إلى يومنا هذا ، ومات الشريف حزيناً مقهوراً ، وهو يحذر من وعود الإنكليز .

---

(١) سورة المائدة آية ٥١ .

(٢) سورة النساء ٨٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٢٠ .

كان كثير من ملوك الطوائف يستنجد بالنصارى واليهود فى الأندلس على أخيه المسلم طمعاً في مملكته .

وقلةٌ قليلةٌ منهم بقيت جذوة الإيمان متوقدة فى قلوبهم ، تأبى عقيدتهم الاستعانة بالنصارى ، فعندما تعرض ابنُ عبَّاد لخطر النصارى المجاورين لمملكته استنجد بسلطان المغرب يوسف بن تاشفين ضدهم ، فقال مستشاروه : إنَّ السلطان أغاثك ، ولكن سينقلب عليك وينتقم منك بعد ذلك ، فلماذا لا تستنجد ببعض ملوك النصارى؟ .

فقال : والله لأن نرعى إبل المغاربة خير من أن نرعى خنازير النصارى[1] .

---

(١) هذه موازنة دقيقة من المعتمد بالله ، فلا يجوز للمسلم ان يوالي الكافرين ويعيش تحت حكمهم ضد المسلمين ، بل لا يجوز موالاة ومساندة النصارى واليهود والكافرين ضد المسلمين مهما كانت المبررات . انظر وفيات الأعيان ٧/ ١١٥ .

الفصل الخامس

الخطر الصليبي

ترنَّحت البلادُ بعللها وأمراضها الداخلية المهلكة التي نخرت أسس الدولة والمجتمع ، فأصبحت الدولة هشة مُعَرَّضة للانهيار والسقوط ، فهي أشبه بجسد مثقل بالأمراض والأوجاع من كل أطرافه ، لا يستطيع أن يؤمن أقل الحماية فَضلاً عن الدفاع عن نفسه .

فالانحراف السياسي فى إذلال وقهر الشعب قد بلغ مبلغه ، والتسلط الجائر على حقوق الناس عمَّ وطم ، كذلك انتشار الفرقة والاختلافات فى البلاد ، فصار كلُّ ملك يكيد لجاره بالدس تارة والقتال تارة أخرى ، ثم الترف والبذخ الذي خدَّر النفوس فأدخلها فى نفق مظلم ، وضرب عليها النوم الثقيل ، حتى أصبحت في عزله عن أمور الدولة ، وبعدها ذوبان الجنس العربي فى المجتمع الأندلسي ، فلم تعد المعالم العربية الإسلامية من لغة وزي وعادات مشاهدة أمام لوثة التفرنج والتقليد للغير .

ومما يؤسف أنَّ بعض حكام ممالك الأندلس من ذوي النفوس المريضة التي نُسبت إلى الإسلام ، كانوا عوامل هدم وتخريب للبلاد والعباد ، وكانت خيانتهم فى البداية أن وافق أحدُ ملوك الطوائف عل دخول الجيوش الصليبية من جهة الشمال بتواطئ وخيانة منه .

لقد بدأ النصارى يُعدُّون أنفسهم منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي ، ولعل الخطأ الذي ارتكبه الفاتحون الأول أنهم لمن يفتحوا مناطق الشمال ، حيث اكتفوا بمافتحوه من البلاد ورأوا أنَّ مناطق الشمال جبلية وعرة ، وكان

من نتيجة عدم فتحها لجوء نصارى البلد إليها ، ثم كونّوا مقاطعات صغيرة يقودهم زعيمهم «بلايو» فاتّخذت الجبال الوعرة سوراً لحمايتها .

وعندما أرسلت الدولة الإسلامية جيشاً لإخضاع المقاطعات اعتصم أفرادها فى مغارة صغيرة منيعة فى أسفل الجبل فحاصرهم الجيش أياماً طويلة ، ولما رأى عدم جدوى الحصار ، وأنهم لا يشكلون خطراً على الدولة لأنهم فئة قليلة لا تزيد على الثلاثين رجع الجيش من حيث أتى .

وهنا الخطأ غير المتوقع الذي وقع فيه هؤلاء الفاتحون ، فعلى المسلم أن يكون كيّساً حذراً يحسب لعدوه ألف حساب ، وألا يستصغر عدوه ، ومن الذكاء والدهاء أن تعلم عدوك قويٌ مهما كان ضعيفاً ، وكبيرٌ مهما كان صغيراً .

نحن لا نحاكم أولئك الفاتحين فقد أدّوا الأمانة الكبرى التي ألقيت عليهم ، ولكن نعرضها لتكون درساً للأمة من بعد .

لقد مرّت سنوات طويلة وقامت حضارة شامخة للمسلمين فى الأندلس ، وأما الشرذمة التى لجأت إلى المغارة ، فقد ازداد عددها ، وإذا كان عددهم ثلاثين ، فبعد عشر سنوات يصبحون ثلاثمائة ، وبعد خمسين عاماً يصبحون ألفاً أو أكثر ، وبعد مائة عام يصبحون ألوفاً مؤلفة ، وهكذا ترتفع نسبتهم بمرور السنين ، فكيف بعد ستة قرون .

لقد ازدادت أعدادهم وبدؤوا يُدرِّبون أنفسهم حتى ملكوا بعض المناطق الشمالية ، فشكلوا نواة مملكة «ليون» التى نشأت فيما بعد من اتحاد مقاطعتى جليقيا الغربية وكانت بريا الشرقية ، وبدأت حركة المقاومة النصرانية في شمالي الأندلس بتشكيل دولٍ صغيرة سرعان ما اتحدت بعد ذلك فصارت

دولة واحدة ، وقد ساعدهم على ذلك عوامل كثرة منها :

١ - خشونة العيش :

كانت المناطق الشمالية فى الأندلس جبليةً وعرةً يقلُّ فيها الماء والمرعى ، وقد استوطن العرب فى الوسط نظراً لخصوبة الأرض وكثرة الماء فيها ، وقد أقاموا فيها حضارتهم التي امتدت قروناً طويلة ، وأما سكان الشمال من النصارى فكانت حياتهم قاسية تدرَّبوا على حياة الشظف والقسوة ، فمناطقهم جبلية وعرة درَّبتهم على الفروسية وخشونة الحياة ، وكانوا معروفين بشجاعتهم وبسالتهم فى القتال ، وقد أكسبتهم بيئتهم فنون القتال .

أما المسلمون فى آخر عهدهم فقد انحدروا من ذروة الجهاد إلى الراحة ولذائذ الحياة ، وانشغلوا بنعيم الدنيا وسحر الطبيعة عن الجهاد ونشر دين الله .

٢ - توحيد ممالكهم :

استفاد النصارى من فرقة المسلمين ونزاعهم فيما بينهم ، فاجتهدوا فى توحيد صفوفهم وجمع ممالكهم تحت قيادة واحدة ، فاتَّحدت ممالك كبيرة مثل قشتالة وأراجون وليون تحت راية واحدة وهى الدفاع عن النصرانية وطَرْدِ العرب المسلمين .

٣ - سوء إدارة البلاد .

كانت السنوات الأخيرة سنوات احتضار للأندلس كلِّها ، فبعد أن كانت بلداً واحداً غدت بلاداً مجزأة تسودها الخلافات والنزاعات ، ومما يؤسف أنه لم تقم علاقاتُ حسنِ جوار فيما بينها .

وأما عن تنظيم البلاد وحسن إدارتها فلا تسأل بعدها عن الفوضى والخوف وعدم الاستقرار ، فملوكها صاروا في قصورهم يتقلبون من نعيم إلى نعيم بين الخدم والجواري ، وأما الوزراء فكانوا أراذل الناس همهم جمع الضرائب والأموال .

وأما بالنسبة لحال الجيش ، فقد سُرِّح أكثره ، وما بقي منه كان يُستعمل للعرض العسكرى في المناسبات والحفلات ، وقسْمٌ يُستعمل لحرس قصور الأمراء ، وقد لاحت أشباح السقوط والانهيار تحت مطارق الجيوش الصليبية .

بداية الهجمات الصليبية العسكرية .

بدأ النصارى يُعدُّون أنفسهم لشن هجمات على الممالك الإسلامية المفككة المجاورة لهم ،فقد هاجم ملك النصارى «الفونسو» مملكة طليطلة ، فسرعان ما سقطت تحت يده على الرغم من قوة المدينة وحصونها الشامخة إلا أنها لم تستطع الوقوف في وجه الجيش ، وقد طُرد ملكها المأمون بن ذي النون ، ومرَّ معنا كيف طغى الملك مأمون ، وأراد غزو ملك قرطبة ، وقد انتقم الله منه اليوم باجتياح النصارى مملكته وطرده منها .

كان سقوط طليطلة نذيراً فى بلاد الأندلس كلها ، ولكن مما يؤسف أنَّ ملوك المسلمين لم يعتبروا بماحدث ، بل سارعوا فى إرضاء ملوك النصارى وموالاتهم .

وبعد عقود زمنية قام النصارى وهاجموا قرطبة عاصمة الخلافة سابقاً ، وظهرت خياناتُ حكام المسلمين الذي رقصوا على دماء وجراح شهدائهم السابقين ، فتنازل ابن هود ملك قرطبة عن ثلاثين قلعة من مملكته للنصارى

ليساعدوه على بنى الأحمر ، ولم يكتف النصارى بالقلاع فأعادوا الهجوم مرة أخرى ، ودخلوا قرطبة وذبحوا الجند الموجودين فيها ، وفى الحال رُفِعَ الصليب على قمة جامع قرطبة ، وحُوِّل الجامع في الحال إلى كنسية .

سقطت قرطبة عاصمه الخلافة القديمة ، وكبرى قواعد الأندلس ، ومثوى العلوم والآداب بعد أن ملكها المسلمون أكثر من خمسمائة عام ، وكان سقوطها - عام٦٣٣هـ - ضربةً قاسية ، وكارثة جسيمة فى العالم الإسلامي كلّه ، ويُعدُّ سقوطها نذيراً مهدداً بخضوع معظم البلاد إما عاجلاً أو آجلاً .

وتبعها بعد ذلك سقوطُ بلنسية عام ٦٣٦هـ ، ودانية ٦٤١هـ ، وجيان٦٤٣هـ ، وشاطبة ومرسية ٦٦٤هـ .

وقد انتشرت أخبار مذابحهم فى الممالك الإسلامية ، وقد وصف الشاعر أبو البقاء الرندي أفعالهم بقصيدته المعروفة :

لكلِّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ	فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ	من سرَّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
فاسأل بلنسيةً ما شأنُ مرسية	وأين شاطبةٌ أم أين جيَّانٌ
وأين قرطبةٌ دارُ العلمِ فكمْ	من عالم قد سما فيها له شانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ	ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ	حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

كان عمل الجيوش الصليبية قائما على أساس الخبث والخداع والمكر والوحشية القاسية التي لا تعرف رحمة أو إنسانية ، وكأنهم وحوش مستعرة ، فالمدينة التي يقومون باحتلالها يُذبِّحون أهلها أو يجبرونهم على التنصير ، ثم

بعدها يحوِّلُون مساجدها إلى كنائس ، وقد حصل مثل هذا في قرطبة .

كان الوضع فى الأندلس متردياً وذلك بسبب فساد ملوك الطوائف ، ولولا أنْ هيأ الله دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الذي أقام دولته فى المغرب ما يقرب من خمسين عاماً . استطاع خلال ذلك قهر النصارى في معركة الزلاقة حيث مَّزق جيوشهم شرَّ ممزق . وألحق بهم هزائم كانت لها صدى فى ممالكهم ، ولولا هذا كلُّه لسقطت الأندلس فى يد النصارى في القرن الخامس الهجرى ، ولكن جهود المصلحين وجهاد المرابطين كانت جبالاً أمام زحفهم الوحشي .

مما يؤسف أنه لم يخطُر فى ذهن ملوك الطوائف أنَّ سرَّ ضعفهم يعود إلى فرقتهم واختلافهم فيما بينهم ، ولمُ يفكِّر أحدٌ أن ينضم إلى أخيه ليقوى به قال تعالى : ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾[1] .

وقال الشاعر

كُونوا جميعاً يا بنيَّ إذا اعترى	خطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادا
تأبي الرماحُ إذا اجتمعْن تكَسُّراً	وإذا افترقن تكسَّرتْ أفرادا

و أما حال العالم الإسلامي في المشرق فكان يعاني من الضعف والانهيار ، فقد سقطت الخلافة العباسية وانحلَّ عقدها تحت مطارق المغول الذين عاثوا فساداً في البلاد ، ولم يستطع المشرق أن يبعث قوة أو جيشاً لحماية إخوانهم في الأندلس ، حتى ولاية المغرب وهي أقرب ولاية لهم باتت عاجزةً عن تقديم الإمدادات والمساعدات .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .

وأما الممالك النصرانية المجاورة للأندلس فقد ازدادت قوةً وتماسكاً فيما بينهما ، فأعلنت الدولتان قشتالة وأراغون الوحدة فيما بينهما ، وتزوَّج الملكُ فرديناند ملكُ قشتالة ملكةَ إيزابيلا ، وتمخَّض من هذا الزواج توحيدُ المملكتين ، وبدأ آ يُنفذان مخططهما بإخراج المسلمين من الأندلس كلّها والسيطرة التامة على شبه الجزيرة .

بدأ الإسلام ينحسر في بلاد الأندلس ، فقد سقطت كبرى الممالك الإسلامية وذهبت بلا رجعة ، وهاجر المسلمون من بلادهم ، ولم يبق من الممالك الإسلامية إلا غرناطة حيث استطاعت هذه المملكة أن تحفظ الإسلام قرابة مائتي عام ، وهي فرصةٌ كافية للمسلمين أن يوحِّدوا صفهم ويستردوا ما فقدوه من بلادهم ، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

خلال عقود زمنية توقَّفت الجيوش النصرانية ، ولجأ المسلمون إلى غرناطة ، وأقاموا فيها نهضة علمية رائعة ، وكل ذلك يرجع إلى أسرة بني الأحمر الذين حكموا المملكة أزمنة عديدة ، وفي نهاية القرن السابع الهجري عادت الجيوش النصرانية وجمعت نفسها وحاولت احتلال مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، فتدفَّق المتطوعون من كافة البلاد الاوروبية وبا لأخص من إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، ويعود سبب زحفهم إلى فشل الحملات الصليبية في المشرق الإسلامي وهزيمتهم أمام القائد صلاح الدين الأيوبي ، كل ذلك دفعهم بعد قرن أن يعودوا كرة أخرى ، ويوحِّدوا جيوشهم تحت قيادة البابا .

لم تكن مملكة غرناطة دولة قوية تستطيع أن تقاوم الزحف النصراني ولكنها كانت رمزاً للمملكة الإسلامية الزائلة ، ولم يكن حكامها في سنواتها

الأخيرة على مستوى من الأمانة والتقوى ، ولكنهم شربوا كأس الذل مرات تلو مرات ، فتنازلوا عن بلادهم وضربوا أمجاد أجدادهم بحفنة زائلة من متاع دنيوي .

الخيانة الكبرى .

إنَّ البلاد أمانةٌ كبرى وُضِعتْ في أعناق حكَّامها وذلك بحفظها وحراستها والذود عنها ، وقد سُقيت بلاد الأندلس بدماء زكية ، وأجساد مؤمنة ، وأرواح طاهرة ، وقد قطع الفاتحون المسافات الطّويلة ، وتحمّلوا المشاقّ الصعبة ، وارتوتْ بطاحُها بدمائهم فما من شبرٍ من أرض الأندلس إلا وسقط عليه شهيد يحمل في قلبه دعوة ربه ، وما مِن بقعة منها إلا وتُلي القرآن غضاً يهتز الوجود لترانيم آياته .

إنه لمن العار والخيانة في الدنيا والخزي في الآخرة أن تُمحى هذه الأمجاد ، وتُدْفن هذه البطولات بتوقيع اتفاقية تسليم البلاد ليرْفع الصليبُ فوق مآذنها الشامخة ، ثم يُحكَمُ على الأمة الإسلامية بالزوال والفناء .

إنَّ ذلك الوزر يتحمله حكام غرناطة الذين رضوا بالخيانة والاستكانة ليحكموا على أمتهم بالزوال من غير أن يُكلفوا أنفسهم الجهاد والدفاع عن الحرمات .

إنَّ الموت في سبيل الله أمنية الإنسان المسلم ، فإذا كان الموت واقعاً لا محالة فليمت في سبيل دعوته خيرٌ له من الذلّ والخيانة والعيش تحت سيطرة الكافرين .

حُكِمت غرناطة- آخر البلاد الإسلامية - من قبل أسرة بني أحمر ،

وكان آخرهم أبو الحسن بن علي بن سعد بن الأحمر الذي تآمر عليه ابنه أبو عبدالله محمد ، واستطاع الابن أن يستلم حكم غرناطة ويطرد أباه منها .

كانت مملكة غرناطة محلَّ الفوضى والاضطراب وذلك بسبب خلاف الأسرة الحاكمة ، وقد استغلَّ ملك النصارى «فرديناند» ضعفَ شخصية أبي عبدالله وحّبه للملك ، لا سيما أن جيوش النصارى أصبحت تدّق أبواب مملكة غرناطة ، فاتصل أبو عبدالله بملك النصارى خوفاً من قوته وبطشه وتنازل له عن البلاد مقابل أن يبقى حاكماً عليها ، وهو ما يعرف اليوم بالحكم الذاتي .

لقد أبرم أبو عبدالله معاهدةً يُنصُّ فيها على تسليم غرناطة حينما يتم تسليم بسطة ومرية ووادي آش ، ولما تساقطت الأراضي كلها في يد النصارى وأصبحت تابعة إدارياً لهم تقدَّموا باتجاه غرناطة ، وطلب ملك قشتالة من أبي عبدالله بن الأحمر تسليم غرناطة حسب المعاهدة المتفق عليها ، ولكن أبوعبدالله استيقظ قليلاً من خيانته ، وأحسَّ بأن النهاية أصبحت قريبة منه ، فجمع أهل الرأي من رجال دولته ، وطلب رأيهم ، فرفضوا قرار التسليم وآثروا الموت على ذلك ، وحدثت معارك صغيرة بين جيوش النصارى والجيش الغرناطي ، ولكن الجيش النصراني كان أكبر وأقوى منهم فاقترب الجيش من المملكة يحمل الصلبان محاولاً فتح المدينة ، وكان سكان المسلمين في غرناطة ما يقرب من مليون ونصف ، وقد اجتمع رجال الدولة حائرين من أمرهم .

فقال أحد الفرسان : «اتركوا العويل والبكاء فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت

حتى ليتسحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ذلك هو موت مجيد . فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمتنا الغبراء أبناءها الأحرار من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال : إنّ أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها»[1] .

كان رأياً حكيماً ، وذلك في حال أنَّ عدد العدو أضعاف عدد المسلمين ، وليس هناك فئة مؤمنة ينحازون إليها ، وإذا سلمت البلاد فإننا حكمنا على أمة كاملة بالإبادة ، لأنّ العدو سوف يذبح رجالاتها ويُنصِّر ما بقى من شعبها وإلا فالموت أمامها .

وليمُت في سبيل دعوته والدفاع عن حرماته خيرٌ له من الذل والخيانة وعندها يكون معذوراً أمام ربه .

إننا نرى صوراً تاريخية من واقعنا المعاصر ، فقد أقام اليهود دولتهم على أرض فلسطين ، وذلك من خلال خيانات بعض أبناء جلدتنا الذين انسلخوا عن قيم مثلى ومبادئ عظمى لأجل حفنة من المال كانت تُلَوح لهم ، أو معونات اقتصادية يكسبون من خلالها أموالاً كثيرة تكون تثبيتاً لحكمهم .

لقد أغروا سلطان الدولة العثمانية- عبد الحميد- بأموال كثيرة من ذهب لخزينة الدولة عامة ولجيبه خاصة ، وكانت دولته تمر في ظروف صعبة من الديون المثقلة ، والأزمة الاقتصادية التي مرَّت بها ، ولكن ايمانه بعقيدته كان أكبر من كل متاع دنيوي ، فقال : «إنَّ هذه ليست أرضي ، ولكنها

---

(١) نهاية الأندلس ١٨٨ .

أرض المسلمين ، وقد رووها بدمائهم ، وفي كلِّ شبر منها شهيد ، ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها ، وهي جُزْء من أرض الإسلام ، وأرض الإسلام لاتباع بالذهب والدراهمَ ، ولن نُفَرِّط بشبر منها قبل أن نبذل كلَّ دمائنا دفاعاً عنها»[1] .

وقد سعى اليهود إلى نزع حقِّ المسلمين وتمسكهم بالمسجد الأقصى وذلك عن طريق اتفاقيات كلامية أو ورقية ، واجتماعات ومجالس هنا وهناك باسم السلام وباسم المصالحة ، وقد وُقِّعت اتفاقيات على مرأى من العالم كلّه ، للاعتراف بدولة اليهود على أرض فلسطين .

وهذا تضييع للأمانة وخيانة للأمة ، فالصلح الذي أحلّه الإسلام مع العدو هو الصلح الذي لا يُحلُّ حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، وليس الصلح الذي يُحلُّ حراماً ويُحرِّمُ حلالاً ، قال رسول ﷺ : الصلح جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو حَلّ حراماً»[2] .

والهدنة جائزة بين المسلمين والكفار وذلك بتوقيف الحرب مدة زمنية للضرورة والمصلحة كما فعل رسول ﷺ مع مشركي قريش ، وكما فعل صلاح الدين مع الصليبيين عند احتلالهم بيت المقدس ، وقياسه مع اليهود اليوم ، قياس باطل مرفوض لا يقوم على أسس علمية ، فالصلح الذي يُبْرَم اليوم مع اليهود هو اعترافٌ بدولتهم وحقِّهم على أرضه المغتصبة ، فكيف نُبْرِم سلاماً مع من أخذ مقدساتنا وسفك دماء أبنائنا ، وطرد شعباً ظلما وجوراً ، ثم بعدها نعترف به ونبارك له .

---

(١) من مذكرات هرتزل/ علي حسون ص ١٩٢ .

(٢) رواه أبو داود في سننه . كتاب الأغطية . برقم ٣١٢٠ .

إنَّ ما أُخذَ بقوة لا يُرَدُّ إلا بقوة ، وأما غير ذلك من الحلول الدبلوماسية فهو ضَرْبٌ من التسلية وتضييع للوقت ، وهدْرٌ لطاقات الأمة ، وتخدير لشعوبها ، ولم نعرف في تاريخنا القديم وواقعنا المعاصر أنَّ أمة من الأمم أو شعباً من الشعوب اقتصر على هذه الأساليب المملة ثم حصل على حُرية أو نال استقلاله ، أو دَحَرَ عدوه فاسترد وطنه .

يقول الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله : «فلا أعرف قضية شرقية فضلاً عن إسلامية أُلقي في موضوعها من الخُطب ، أو كُتب فيها من المقالات ، وعُقدَ لها من الحفلات والمؤتمرات ، واتخذ لها من المشروعات والقرارات ، ونُظِّم لها من المواكب والمظاهرات ، ما كان لهذه القضية التي ظلت الشغل الشاغل للعرب والمسلمين ، بعدما وضعت الحربُ الكونية أوزارها ، وأُعْلنَ مشروع وطن اليهود ، فكانت مقدمة كلِّ خُطَب ووعظ ، وتُكأة كلِّ خطيب ومتحدث ، وسندَ كلِّ زعيم وقائد في كسب الرأي العامِّ ، والسيطرة على عقول الشباب والجماهير ، فقد ضربت هذه القضية الرقم القياسي في كثرة الحروف التي كتبت على الورق ، وعدد الكلمات التي انطلقت إلى الفضاء ، ثم لم يُغْنِ ذلك كلُّه شيئاً»[1] .

ومما يؤسف أننا جربنا هذا النوع ما يقرب من ستين عاماً ولم نجن منه إلا الخزي والعار والذل والضياع ، وقد أصبحت هذه الطرق لا قيمة لها ولا تأثير ، وهي طرق وأساليب عقيمة لا تنظر إليها الشعوب الغربية ، ولكنها فرضت علينا لتمرير السنين فيزداد عدونا قوة وتمكيناً .

إنَّ ما يحتاجه المسلمون حكاماً ومحكومين الإيمان والإخلاص والثقة

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين ١٦٠ .

بدينهم وحضارتهم ، وقد ابتليت الأمة ببعض رجالاتها ممن تولوا زمام أمورها ، فكانوا وصمةَ عارٍ في تاريخ الأمة ، وقد ألهوا شعوبهم بأساليبهم الماكرة ، فضيعوا البلاد واستعبدوا العباد .

إنّ الأمة الإسلامية تعرضت لكارثة اجتياح الصليبيين حيث قدم ملك ألمانيا وإنجلترا على رؤوس الجيوش ورفعوا الصليب ما يقرب من تسعين عاماً فوق مسرى رسول الله ﷺ ، ولم يقف في وجه الجيش الزاحف ملك ولا جيش ، وعجزت الممالك الإسلامية عن الدفاع عن حرماتها ومقدساتها ، ولكن بقيت جذوة الإيمان مشتعلةً في قلوب الأمة حكاماً ومحكومين ، بل كانت قضية المسجد الأقصى والذود عن حرمات المسليمن الهمَّ الشاغل في أوقاتهم كلها ، فلم يهنأ لهم عيش ولم يرقأ لجفونهم نوم .

نعم كانت هناك غفلة لدى المسلمين ولكن شرارة الإيمان لم تنطفأ ، وضميرهم الإيماني الحي الذي وخَزَ قلوبهم لم يمت بعد ، واعتزازهم بعقيدتهم كانت مظلتهم التي يستظلون بها .

لقد وصف ابن شدَّاد السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء وقوع الكارثة بقوله : كان كالوالدة الثكلى ، يجول في فرسه من طلب إلى طلب ، ويحثُّ الناس على الجهاد ، وينادي يا للإسلام وعيناه تذرفان الدموع ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً ألبتة .

وقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه [1] .

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين ٤١ .

بهذا الاهتمام الشديد والحرص القوي ، والنفس القلقة استطاع السلطان أن يكمل طريقه ، ويظفر بالفتح المبين في معركة حطين ، وما توحدت البلاد والتفت الشعوب حوله إلا بسبب إيمانه القوي ، وقلبه المتدفق بالإخلاص والحبِّ لهذا الدين ، فقد جمع البلاد ووحَّدها بعد أن كانت ممالك مقسمة ومشتتة ، فأزال ما يُكدِّر وحدتها ، وأعادها إلى تراثها العظيم .

إننا نعيش واقعاً مؤلماً ما نراه اليوم من حال المسلمين وانحدارهم من القمم إلى الانحدار السحيق ، وما تمكين اليهود وإقامة دولتهم إلا عقوبة من رب العالمين لهم بسبب تضييعهم الأمانة ، التي قال عنها في كتابه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1] ، وخليفة الله إنما بتحكيم شرعه ونشر دعوته وبذل كل ما يملكه الإنسان لأجل عمارة الأرض بالعدل والإيمان .

لقد قصَّ الله علينا كثيراً من قصص اليهود الذين أُكرموا برسل كثيرين في قرآننا العظيم لأجل العبرة والعظة لا لأجل التسلية ، فليكن قرآننا منهجاً في حياتنا اليومية ، وحكماً على أفعالنا .

لقد أصاب المسلمين اليوم انحسار في عقيدتهم وسلوكياتهم ، فكيف ينصر الله قوماً على عدوهم ، وهم غارقون في مستنقع المعاصي والآثام ، وقد ازدحمت حياته اليومية بالدنيا وشهواتها ، فاللهو والغناء والرقص والدعوة إلى الرذيلة قد ملأت شوارعه ، وأما القنوات الفضائية فبدلاً من أن تكون منبر خير تدعو إلى القيم والفضيلة ، نرى فيها السم القاتل ، من ميوعة وخلاعة ورذيلة .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

ثم نرى تبعية المجتمع للحياة الغربية من الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية ، وليتنا أخذنا من المجتمع الغربي حبه للعمل واجتهاده وحرصه على الوقت .

ويوم أن يجعل المسلمون قضية الدين شغلهم الشاغل ، ومسرى رسول الله ﷺ أهم من دنياهم ومتعهم الدنيوية ، عندها ينحسر الشر في زاوية ضيقة ، فيعم الخير ، وينصر الله جنده ، قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾[1] ، ويأتي الله بالفرج الذي يزيل الغمة ويرفع الظلمة ، ويتحقق وعد رسوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[2] .

﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا** ﴾[3] .

وقف المسلمون في الأندلس أمام خيارات قاسية ، فإما أن يستسلموا للنصارى ويرضوا بحكمهم والعيش تحت مظلتهم ، وهذا سيكلفهم ثمناً عالياً على حساب عقيدتهم ودينهم ، وسيكونون معرضين للتنصير قسراً ، وإما أن يخرجوا من البلد الى بلد مسلم مجاور ينضمون إليه ، وإما الجهاد والدفاع عن الحرمات والذود عن الدين .

رأي أبو عبد الله نتائج خيانته وارتمائه في أحضان النصارى الذين انقلبوا

---

(١) سورة محمد آية ٧ .

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه . كتاب الفتن وأشراط الساعة ١٨/ ٤٥ .

(٣) سورة الإسرار ٥١ .

عليه ، فلم يكتفوا بخيانته فقط ، بل أرادوا البلاد كلّها ، وهذا شأن العدو يُمنّي أصحاب النفوس المريضة - ممن كانوا له عملاء - بدغدغة أحلامهم ووعوده الكاذبة ، فإذا أحكم سيطرته انقلب عليهم وتخلص منهم بأي وسيلة كانت إما عاجلاً أو آجلاً .

صاح أبو عبد الله بين رجال دولته ، وقال : «الله أكبر ، ولا رادّ لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي»[1] .

وقّع صكّ الخيانة ، وصاح في وجهه ذلك الفارس الذي نصح وأنذر ، فقال هنا : «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أنّ النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إنْ الموت أقلُّ ما نخشى ، فأمامنا نهب مدينتنا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق التي نخشى الآن الموت الشريف»[2] .

انطلق هذا الفارس مغضباً ، فانتزع سيفه وأخذ رمحه وامتطى صهوة جواده ، وخرج إلى العدو فقاتل حتى رُئي صريعاً مع جواده .

المأساة المفجعة

دخل النصاري القشتاليون خلف ملكهم رافعين صلبانهم ، وقد أخليت الحمراء وأفنيتها الكبيرة استعداداً لهذا اليوم ، وسار الموكب الملكي إلى المدينة حتى وصلوا إلى قصر الحمراء ظافرين ، وأعين المسلمين باكية حزينة ، والأسى والحزن مزق أكبادهم .

(١) نهاية الأندلس ١٨٧ .

(٢) نهاية الأندلس ١٨٨ .

كان دخولهم سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) وبدخول النصارى طُويت صحفةٌ مشرقة من تاريخ المسلمين في الأندلس ، وأنطفأت شعلة أنارت ظلام أوروبا ثمانية قرون ، وما سرُّ نهضتها اليوم إلا ثمرة من ثمار حضارة المسلمين في الأندلس .

استولى النصارى على آخر المدن الإسلامية - غرناطة - وخفق علم النصرانية فوق مآذن جوامعها ، وطُويت صفحة الأمجاد والبطولات بأصابع الخيانة والذل .

وغادر الملك أبو عبدالله مع أسرته قصر آبائه وأجداده ممن حكموا مملكة غرناطة قرنين كاملين ، وها هو اليوم يحمل أمتعته ومن ورائه أهله وصحبه ، وخرجت بقية نسوة القصر باكياتٍ صامتات ، يقول أحمد شوقي بحسرة[1] :

مشت الحادثاتُ في غُرَف الحمراء ... مَشْيَ النعيِّ في دار عُرْسِ

هتكت عِزَّة الحجاب وَفضَّت ... سُدَّةَ الباب من سمير وأُنسِ

آخرَ العَهد بالجزيرة كانت ... بعد عَرْك مَن الزمان وضَرْسِ

فتراها تقول : رايةَ جيش ... باد بالأمس بين أَسْرٍ وحسٍّ

ومفاتيحُها مقاليدُ مُلْكٍ ... باعها الوارثُ المضيِّعُ بُبخس

خرج القومُ في كتائب صُمٍّ ... عن حفاظ كموكب الدَّفْن خُرْسِ

ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هي العرشُ أمسِ

تقدَّم الأمير أبو عبدالله بأذلِّ هيبة تجاه سيده الجديد «فرديناند» ، ثم ناوله

(١) ديوان شوقي ٢/ ٥٠ .

مفاتيح الحمراء قائلاً : «إنّ هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في أسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا ، وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيماً عادلاً»[1] .

ولما علا صهوة جواده ، وخرج من مدينة غرناطة وقف على تلّة ، ونظر إلى المدينة ، فإذا به ينهمر في الحال من البكاء ، فصاحت به أمه : «أجل فلتبك كالنساء مُلْكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال»[2] .

دخلت الجيوش النصرانية آخر المدن الإسلامية- غرناطة- ، وعُومل شعبها معاملة وحشية قاسية ، وحصل ما توقعه الفارس الأمير عندما قال : لاتخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أنّ النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . . . . .

وقد غربت شمس الإسلام عن بلاد الأندلس بعد أنْ حملها المسلمون ثمانية قرون ، أقاموا خلالها أروع حضارة عرفها الغرب ، وكان من أثر حضارة الإسلام أن فتحوا أدمغة الغرب إلى العلم والحضارة ، وأحيوا فيه إنسانيته بعد أن عاش تحت الأوهام والخرافات قروناً زمنية .

وبقيت حضارة المسلمين شاهدة وناطقة على المجد التليد الذي شيده المسلمون ، فهاهو جامع قرطبة ، وقصر الحمراء والزهراء معالم حضارية تحكي لك قصة المسلمين في الأندلس المفقود ، قال أحدهم متألماً :

وقفتُ بالزهراءِ مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِراً أندب أشتاتاً

---

(١) نهاية الأندلس ١٩٣ وفي بعض الروايات تذكر أن أبا عبدالله أحنى رأسه لتقبيل يد سيده . . «فرد يناند» ولكن الملك امتنع عن ذلك .

(٢) نهاية الأندلس ١٩٣ .

فــقلت : يا زهراءُ ألا فــارْجــعي قالت : هيهاتَ وهل يرجعُ من ماتَ

فلـم أزل أبكـي وأبكي بـهـــــا هيـــهــات يُغني الدمعُ هيــهــاتا

فضيحة النصارى

لقد ترجمت عملية سقوط الأندلس بيد الصليبين الحقد والكراهية المدفونة في قلوبهم ، حيث أعطوا العهود والمواثيق عند توقيع اتفاقية تسليم غرناطة ألا يمس المسلمون بسوءٍ ، وأن يسمح لهم ممارسة شعائرهم الدينية تحت ظل الحكم النصراني .

كانت شروط تسليم المدينة على يد أبي عبدالله مكونة من سبعة وسبعين شرطاً ، أهمها تأمين المسلمين على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملاكهم ، وإقامة شعائرهم ، واحترام مساجدهم ، وهناك شروط أخرى ، ولكن لم يحقق شرط واحد من شروط معاهدة التسليم ، بل بدأت التصفيات الجماعية لشعبها المسلم ، وقامت محاكم التفتيش يرأسها رجال الكنيسة من البابا والقساوسة ، ولم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قتلٍ وحرقٍ ، وذبحٍ وسجنٍ تحت الأرض ، وقد أسفر العداء الصليبي عن وحشيةِ وهمجيّة النصارى ، وانحطاط الإنسانية في الشعوب الغربية التي لا تعرف رحمة أوقيماً إنسانية .

وقد أُجبَر المسلمون على اعتناق النصرانية قسراً ، فطُمِست هويتُهم كي لا يُميزوا عن غيرهم ، فغُيرت أسماؤهم ، وحُوِّلت مساجدهم إلى كنائس ، وأخذ أولادهم إلى مدارس لتعليم النصرانية ، ومُحيت لغتهم العربية تمهيداً لنسيان حضارتهم .

لقد بقيت روح الجهاد مُتقدة في قلوب البقية الباقية من المسلمين فقامت ثورات في بلاد الأندلس يدافعون فيها عن عقيدتهم وأنفسهم ، واستمرت سنوات ، ولكنها أُخمدت وتمَّ القضاء عليها ، لأنها ضعيفة لم تجد تأييداً ومناصرة ، وكان الملجأ لهذه الأسرة المسلمة الهجرة من الأندلس ، فخرج المسلمون مع نسائهم وأطفالهم مهاجرين ، فمنهم من قصد فرنسا ومنهم من ذهب إلى المغرب .

وقد أصدر البابا قراراً بتقسيم أرض الكفار - أي المسلمين - إلى دولتين : أسبانيا والبرتغال ، وأمرهما بمتابعة فلول المسلمين الهاربين خارج الأندلس وأمر بتصفيتهم ، وقد قامت حركة عُرِفت بحركة القضاء على الإسلام ، وفتحت محاكم التفتيش لذلك ، واستغرق العمل قرابة قرنين كاملين ، وانتهت بعدها بالقضاء على المسلمين ونسيان تراثهم وأصولهم .

كان سقوط الأندلس مصيبة جسيمة على الأمة الإسلامية عامة ، ومن المؤسف أنَّ المسلمين في الشرق لم يستطيعوا نصر إخوانهم ، لأنهم بحاجة إلا من يجمعهم ، فالخلافة الإسلامية سقطت سنة ٦٥٦ هـ على يد المغول وقد ضعفت البلاد الإسلامية وتفككت إلى ممالك .

وبقيت الأمة الإسلامية في تفكك حتى جاء العثمانيون وأقاموا دولتهم واستطاع السلطان محمد الفاتح فتح القسطنطينية عام ٨٥٢ هـ ، وأعلن أنها عاصمة الخلافة الإسلامية ، وقد انتشر الإسلام من جديد في الجانب الشرقي من أوروبا ، وسقطت عاصمة الدولة البيزنطية «القسطنطينية» وأصبح الإسلام يهدد أوروبا الشرقية ، وفي الوقت نفسه كانت بلاد الأندلس في أيامها الأخيرة ، فليس من الممكن فتح جبهة أخرى في المغرب ، لأن الشرق

كان منشغلاً بمواجهة المملكة البيزنطية في القسطنطينية ، فعليه أن يُعدَّ كل القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية ، لاسيما وأنه رأى أن عمليةَ إنقاذ الأندلس باتت غير مجدية وغير مفيدة ، وسوف يكلفه الكثير ، وهو مشغول بإقامة صرح الخلافة .

وإذا كان الإسلام انحسر في الأندلس وغابت شمسه ، فإنه أشرق مرة أخرى في القسطنيطينية ليمتدَّ من جهة الغرب ثم يدخل أوروبا .

ولنا أن نتساءل لماذا استطاع النصارى إزالة حضارة المسلمين من الأندلس ولم يستطيعوا في بيت المقدس؟

والجواب على هذا علينا أن نعرف الحدث الزماني والمكاني ، فالأندلس كانت في أقصى غرب الدولة الإسلامية ، وهي بلاد تحيطها بلاد النصارى من كل جانب حتى الجانب الذي يطل على البلاد الإسلامية مثل المغرب كان البحر يفصلها ، وهذا الموقع الجغرافي أعطاها بعداً واضحاً عن الخلافة الإسلامية ، فالنصارى مجاورون للأندلس من كل مكان ، وكلما ابتعدت الولاية الإسلامية عن قلب الخلافة كان الأثر الديني أقل .

ثم فشل الحملات الصليبية في الشرق وعودتها مقهورة فلم تجد ضالتها في الانتقام إلا من الأندلس ، لذلك كانت حملتها تصفية شاملة لحضارة المسلمين ، ثم عملية الخيانة التي بدرت من حكام الأندلس ، فقد سلمت البلاد أشبه ما يكون ببيع وشراء ، وهي المعاهدة التي تنص على التسليم ودخول البلاد تحت الحكم النصراني ، فهو اعتراف بحق العدو وإقامة دولته ، فليس بعد ذلك لأحد المطالبة بحقه .

أما الحال في بيت المقدس ، فالأمر يختلف ، نعم إنَّ النصارى احتلوا بيت المقدس ، وبقي المسجد الأقصى تحتهم ما يزيد على تسعين عاماً ، ولكن بيت المقدس في قلب الأمة الإسلامية ، والبلاد الإسلامية محيطة به من كل جانب ، والمستوى الإيماني لدى الحكام والشعوب مستوى مقبول إلى حد ما ، فقد نظروا إلى العدو أنه دخيل ينبغي أن يقاوم ، فلم تكن هناك تبعية من قبل الحاكم وإن وجدت من بعض النفوس المريضة فهي نسب قليلة لا قوة لها أمام السواد الأعظم .

لا أحد يُنكر وجود المعاصي والآثام وفساد المجتمع في بلاد الشام والعراق ومصر ، وعلى الرغم أنَّ نسبة الإيمان كانت قليلة ، ولكن كان الخير غالباً على الشر ، ونظرتهم إلى دينهم نظرة اعتزاز وافتخار ، وجذوة الإيمان لم تنطفئ بعد ، بل كانت موجودة رغم العكر الذي طمسها ومحى لمعانها بسبب أمراض المجتمع ، ولكن جاءتها الحياة عندما وجدت من يذكرها .

فعندما دعى منادي الجهاد هبَّت الأمة من غفلتها ، وجاءت صيحة عمر : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغير الله أذلنا الله» ، مدوية في آذانهم ، فعادوا إلى عقيدتهم ودينهم بحرارة وشوق . كذلك المدارس الدعوية الإصلاحية التي كانت محطات تبث الإيمان والعقيدة ، وتبعث الأمل في قلوب الأمة ، فلم يستطع العدو أن يؤثر في أبناء الأمة ، بل بقي على أنه جرثومة خطيرة ينبغي أن يقاوم ويستأصل من جسد الأمة .

ولا ننسى وجود المسجد الأقصى ثالث الحرمين وقبلة المسلمين الأولى فله أثر في تحريك الإيمان في قلوب الأمة حكاماً ومحكومين ، فقد أعطى الحماس الديني في قلب كل رجل من أبناء الأمة الإسلامية ، ثم قربه من

الحرمين الشريفين الذي رُبط بهما برباط تاريخي وقدسي .

وما أشبه حال الأندلس في الماضي بحاضر المسلمين اليوم من ضياع الإيمان من قلوب الناس حكاماً ومحكومين ، ولم تعد نظرة المسلمين اليوم إلى دينهم كنظرة أسلافهم من قبل ، بل ظنَّ كثيرٌ من أبناء جلدتنا أنَّ الدين لم يَعد قادراً على فرض نفسه أمام أنظمة الغرب المستوردة ، وأصبحوا يعتقدون أنَّ التفرنج وتقليد الشعوب الغربية أمرٌ لا بدَّ منه ، فالتبعية للغير صارت سمةً في حياة المسلمين .

وقد حصلت خيانات ومؤمرات على مساومة الدين والبلاد والعباد ، فقد بيعت بلاد لأعداء الله مقابل حفنه من المال ، وأبعدت الشريعة الإسلامية عن التطبيق ، وتم تصفية بعض رجال الفكر والدعوة ممن كانوا مصدر قلق لأصحاب النفوس المريضة الذين تربعوا على كرسي الحكم دون خوف من الله .

لقد احتلَّ الصليبيون بيت المقدس وبقي تحت سيطرتهم ثلاثاً وتسعين عاماً ، وبعض المدن الإسلامية بقيت قرابة مائتي عام بأيديهم ، ولكن لم يعتقد المسلمون آنذاك أنَّ الصليبيين أولياء أمورهم ، بل نظروا إليهم أنهم كفار مغتصبون لابد من إجلائهم ، وبقيت الآيات واضحة ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة آية ٥١ .

وقال : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[1] .

والشيء المستغرب ما طرأ اليوم على المسلمين من المسارعة في إرضاء اليهود والارتماء بأحضانهم ، وهذا حدث مفاجئ ، والأعجب من ذلك الدعوة إلى السلام معهم وتطبيع العلاقات بيننا وبينهم ، والأرض مقابل السلام ، والدعوة إلى التعايش معهم والاعتراف بوجودهم كدولة لها كيان مستقل ، ثم بعدها فتح العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية ، ولا أدري أي جنون حدث لأبناء جلدتنا ممن ينادون بمثل هذا الدعاوى الكاذبة .

ولنا أن نسأل ونقول : من المسؤول عن سقوط الأندلس .

لقد استعرضت الأمراض القاتلة التي كانت أسباباً مباشرة في عملية سقوط الأندلس في شتى ميادين المجتمع ، فأفسدت حياته وقيمه ، وليس المسؤول عن هذا كلّه رجلاً واحداً أو صنفاً واحداً من الأمة ، بل المسؤول عن هذا جميع الناس حكاماً ومحكومين ، كل حسب مسؤوليته ومكانته في المجتمع ، وأعلاهم مكانة في المجتمع أعظمهم مسؤولية ، فالحكام هم أكثر الناس مسؤولية عن ذلك .

وعلى المسلمين اليوم حكاماً ومحكومين أن ينتبهوا إلى مكمن الخطر في حياتهم ، فهناك بلاد فتحت على يدي أبائنا وأجدادنا وقامت فيها حضارات إسلامية استمرت قروناً طويلة ، فإن لم ينتبه المسلمون إلى الأخطار والأمراض في مجتمعتهم فسوف يحل بها مثل ما حل بالأندلس ، وما حال المسلمين في

---

(1) سورة البقرة آية ١٢٠ .

بلاد الهند عنا ببعيدة ، فالهندوس يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وينتظرون الفرص لينقضوا عليهم ، وهم عاكفون على قراءة تاريخ إجلاء المسلمين عن الأندلس لينفذوه في الهند ، فيستفيدوا ممن سبقهم في ذلك ، وما يقال عن الهند يقال عن فلسطين .

خاتمة

كان سقوطُ الأندلس كارثـةً جسيمـة أصابت جسد الأمة الإسلامية ، ولا شكَّ أن السقـوط جـاء وفق سنن الله الكونيـة ، قـال تعـالى : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [1] وقـال : ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [3] .

وعلى الأمة أن تستفيد من أسباب السقوط ليكون لها درساً في المستقبل أمام أعدائها ، وقـد ذكرت حضـارات في القرآن ، مثـل حضـارة فرعـون ، وحضـارة قوم هود ، وحضارة قوم عاد ، وقوم لوط ، ولكنهـا زالت وانطفأت وأصبحت أثراً بعد عين ، والقرآن يضع الدواء على الداء ، ومعلوم أنَّ أسباب زوالها كفرها بالله ، وإعراضها عن منهج رسلها ، قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [4] .

وقد ذكرت الأمم والحضارات في سورة الشعراء الواحدة تلو الأخرى ، وكـان يذكر في نهاية كل أمة وحضـارة بعد هلاكـهم : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [5] .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١١٧ .

(٣) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٤) سورة فصلت آية ١٧ .

(٥) سورة الشعراء آية ٨ .

ومما يؤسف أنَّ الأمة اهتمت اليوم بقرآنها من حيث المظهر العام ، فقد أقامت حروفه ، واهتمت بنغمة الصوت دون أن تتأثر بالغايات والأهداف التي جاء لأجلها القرآن الكريم ، لذلك على العلماء أن يربطوا القرآن بأحداثنا اليومية ، فلا ينبغي أن يكون القرآن كتاباً تاريخياً نضعه على رفوف مكاتبنا لانلجأ إليه إلا في المناسبات ، ولكنه نزل ليحي أمة وينشئ جيلاً إيمانياً يطبق منهج الله في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[1] ، وخليفة الله يظهر بإقامة شرعه وإحقاق الحق وتطبيق العدل .

وقد جعل الله في زوال الأمم والحضارات قوانين لا تحيد عنها ، قال تعالى : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[2] .

وهذه القوانين مكونة من عناصر لابد منها هي الأفراد والمبادئ . . . . ، وما من أمة إلا ومرَّت في قوانين خضعت لها قبل سقوطها وزوالها ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[3] .

ومن القوانين التي ينبغي أن تكون موجودة في ترسيخ العدل وإقامة شرعه هو التحام رجال السياسة برجال الفكر والدعوة والفقه ، فكلما قرب رجالُ الفكر والدين وأُخذ بآرائهم ونصائحهم كان تثبيتاً للملك وإطالة في عمر الدول ، فوصية السلطان محمد الفاتح رحمه الله لابنه تطعي أثر

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٦٢ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

تقريب رجال الدين في الحكم ، قال : «قدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ، وبما أنَّ العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة ، فعظِّم جانبهم وشجِّعهم ، وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك ، وأكرمه بالمال»

وهكذا سادت الحضارة الإسلامية في عهودها الزاهية في كل من الأندلس وبغداد ودمشق ، وهكذا التحم رجال السياسة والحكم مع رجال الدين والفكر والدعوة في حروبها مع الصليبيين تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي .

إنَّ الحضارة الغربية اقتبست دعائمها من أسس حضارتنا الإسلامية فجعلوها منهجاً في حياتها ، فالحاكم عندما يتخذ قراراً يرجع إلى ذوي الاختصاص والمستشارين في دولته ، فيسلمهم زمام الأمر ، فيعطون تصوراتهم وآرائهم من غير مجاملة أو ضغوط ، ولو أدَّى الأمر إلى معارضة رأي الحاكم .

ولعلَّ هذا السبب في هجرة العقول البشرية المسلمة من بلادها إلى بلاد الغرب ، فعندهم الجامعات ومراكز البحث العلمي التي تدعم بأموال ضخمة في سبيل البحث والتطور والتجارب المتواصلة ، مما يعطي المجال الواسع للباحث ليتابع مسيرته العلمية في جو مشجع مالاً وثناءً وحكومة وشعباً مهما كان الأصل العرقي للباحث .

إنَّ نزيف العقول العربية وهجرتها للدول الغربية أحد المعضلات الرئيسية وراء التراجع والتأخُّر الذي يعانيه العالم العربي في مجالات العلوم

والتقنية ، ويعتبر الخلل السياسي للحكومات العربية وانعدام وجود مشروعات تنموية وعلمية سبباً رئيسياً في هجرة العقول العربية ، بينما يسيطر الفساد السياسي والإداري على مختلف مجالات الحياة كلها في الدول الإسلامية ، وهذا ما جعل مئات الآلاف من المبدعين والعلماء يعيشون بين خيارين لا ثالث لهما : إما الهجرة إلى دول تقدر العلماء والمبدعين ، وإما البقاء مُحْبطين في دولهم .

ولعلّ التقرير الذي نشرته أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر في شهر «يوليو» من عام ألفين ، والذي أكد أن أكثر من ٤٥٠ ألف مصري من حملة المؤهلات العليا قد هاجروا الى الغرب خلال الخمسين عاماً الماضية ، برز منهم ستمائة عالم في تخصصات نادرة جداً ، لعل هذا التقرير يؤكد الاخفاق الذي تعيشه الحكومات العربية في قدرتها على استيعاب أبنائها والاستفادة من قدراتهم وسياسة «طرد الكفاءات» وعدم تقدير البحث العلمي وأهميته .

وهذا ما جعل إسرائيل تتفوق على العرب في كل شيء ، لا سيما في هذا المجال ، حيث تأتي إسرائيل في المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة من حيث معاهد الأبحاث والقدرات العلمية ، وفي المرتبة الثانية بعد ألمانيا في عدد المهندسين قياساً على عدد السكان ، وفي المرتبة الرابعة بعد اليابان والولايات المتحدة وفنلندا من حيث التطورات التكنولوجية ، فيما نرى العالم العربي في مؤخرة الركب .

ثم نتسائل لماذا يتقدمون ونتأخر؟ ! ولماذا يستقطبون علمائنا ويحتفون بهم ، في الوقت الذي تحتفي فيه وسائل إعلامنا معظم ساعات الإرسال

في وسائل إعلامها بالفنانين والراقصين ، ولا تمنح العلماء والمبدعين أي قدر من الاهتمام .

وقف عائد مبتعث من الخارج في بلد عربي حاصل على درجة الدكتوراه في الهندسة ليشكو الى رئيس دولته في مؤتمر المبعوثين ، من أنه لم يوضع في وضعه الصحيح ، لانه فرض عليه أن يُدَرِّس التربية الصحية ، ثم وقف زميل له حاصل على الماجستير في الهندسة ليشكو من أنَّ القوى العاملة قد وضعته في موضوع مدرس للجغرافيا . . !

ولا شك أن هذه الشكوى لأعلى منصب في دولتهما ، وظَنّا أنهما سيحصلان على حقهما فوراً ، ويوضعان في موضعهما المناسب ليستفيد منهما المجتمع الذي ابتعثهما وأنفق عليهما الآلاف من الأموال ، وكأنَّ إمكانية الدولة قد عجزت على تأمين عمل يناسب اختصاصهما ، ولكن رد رئيس الدولة رداً مُثَبِّطاً فقال : عليكما أن تحمدا الله أن وجدتما عملاً . . . . [1]

إنَّ الشعوب العربية من أذكى شعوب العالم ، وإذا صُنِّفت في الذكاء فإنها تحتل المرتبة الثانية بعد الشعب الياباني ، ولكن مما يؤسف أنَّ هذه العقول حُجِّمت بسبب الفساد السياسي والإداري الذي تعيشه البلاد [2] .

إنَّ قوة الحكومات تتكافل مع رجال الفكر والعلم ، وعلى رجال العلم والفكر والدين ألا يخضعوا لأحد كائناً من كان ، وإذا عكس هذا الأمر من أساليب ملتوية يتخذها الحاكم ذريعة لبسط سيطرته من تحجيم العالم عن إبداء رأيه بالتهديد تارةً والترغيب تارة أخرى ، فلا شك أنَّ الأمر سيؤدي إلى

---

(١) نزيف العقول البشرية ص ١٢٤ .

(٢) هذا الكلام قاله برفيسور ألماني في محاضرة ألقاها في الجامعة أمام الطلاب الألمان .

تقريب علماء السلطة السطحيين ، فتضيع الشورى ، ويتولى شرار الأمة أمور الدولة ، وبعدها تنهار القيادة الفكرية ويحرم المجتمع كله من إبداع العلماء والمفكرين[1] .

وإذا غفل العلماء والدعاة عن نصح الحاكم كانت المصيبة الكبرى للأمة ، والخوف أن يُستغلَّ العالم لضغط الحاكم فيصير أداة طوعية في يد الحاكم يستعمله في تحقيق منافعه الشخصية ومصالحة الذاتية كما هو الحال في زماننا .

فإذا أخطأ الحاكم فسيجد من العلماء من يُبرِرُ خطئه بلَيِّ النصوص الشرعية ليوافق فعله ، فعند ذلك تنتشر بطانة السوء من العلماء والفقهاء الذين تحوَّلوا إلى علماء سلطة يسيل لعابهم لحطام زائل .

وهنا بين النبي ﷺ خطَرَ سكوت الأمة عن نصح الحاكم وأثره في انهيارها ، فقال : «إذا رأيتَ أمتي تهابُ الظالم أن تقول له إنك ظالم» فقد تُوِّدع منهم ، وروى الحاكم وقال : صحيح الإسناد : «إذا رأيت العلماء تهاب أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم»[2] .

وليس الحديث على ظاهره من قول الأمة بلسانها : إنك ظالم ، ثم السكوت بعد ذلك ، بل نصح الحاكم وإنكار ظلمه ، يدخل في إنكار المنكر على قدر الطاقة والاستطاعة ، وقد قال النبي ﷺ : «من رأى منكم

---

(١) انظر هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ص ٢٧٩ .

(٢) رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، قال السيوطي : صحيح . انظر فيض القدير ١/ ٣٥٤ .

منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [1] .

وكلمة الحق لها منهج وأسلوب فلا يكون نصحه بغلظة وذكر عيوبه على ملأ من الأمة ، بل النصح يكون في دائرة الضوابط الحكيمة والكلمات السديدة وفي الأوقات المناسبة [2] ، قال تعالى : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ [3] .

لذلك خشية العالم من الله تعالى ، ثم الزهد في مناصب الدنيا يكون أعظم أثراً في قلب الحاكم ، فهم أطباء الأمة ، وأعلمهم بعللها .

ومن المصائب التي ابتليت بها الأمة التبعية والتقليد الأعمى الذي يُضعِّفُ شخصية الأمة ويُذَوِّب هويتها الإسلامية وأصالتها ، وقد حذَّر الرسول ﷺ من هذه الظاهرة ، قال : «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ تبعتموهم ، قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى . قال : فمن» [4] .

وهو داءٌ خطير يُرسِّخُ في قلوب النشئ الإعجاب بالغير وتناسي الأصل الذي نشأ منه ، وقد حاول أعداء الإسلام ترسيخ مبادئ حضارتهم في عاداتنا ، وما نسمعه اليوم من ظاهرة «العولمة» دليل على صحة ما نحذر منه ، وبدأ التقليد في مسلمي الأندلس عندما ضعف الوازع الديني في قلوبهم ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٤٥) .

(٢) جهاد الكلمة معالمه وضوابطه . د . أبو الفتح البيانوني ص٢٣ .

(٣) سورة طه : آية ٤٤ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه . باب الاعتصام بالكتاب والسنة برقم ٦٧٧٥ .

فأصيبوا بلوثة في هويتهم وعدم قناعتهم بها ، فنشأ جيل من المسلمين ماشياً في ركب حضارة النصارى في المأكل والمشرب والملبس .

وإنّ الغزو الفضائي «القنوات الفضائية» تسعى لترسيخ مبادئهم وعاداتهم ، ولعل الانتكاسات التي تعرض لها المسلمون أمام أعدائهم كانت سبباً في نظرتهم السطحية لدينهم .

هناك فرق بين عقيدة الله وبين عقيدة تعظم أصناماً مادية ، نعم نعترف اليوم أننا أمة ضعيفةٌ تعيش في ضياع وتثبيط لهممها أمام حضارة الغرب وقوة نفوذه ، ولكن لا يعني ذلك أن نضيع تراثنا وعقيدتنا ، فنحن أمة التقوى وأمة الهداية اصطفانا الله على الأمم كلها ، فمهما تعرض المسلمون اليوم لضعف فنحن خير منهم لأننا نؤمن بالله ولنا به أعظم صلة منهم ، وهذا الضعف ينبغي أن يستفيد منه المسلمون ليصححوا الخلل الذي طرأ عليهم .

انهزم المسلمون في معركة أحد أمام قريش ورجالاتها ، ولكن لم يكن انهزامهم لِيُنسيَ عقيدتهم وتاريخهم الإسلامي ، بل لم يُضعِّفُ شخصيتهم الإسلامية ، بل رجعوا إلى سبب النكسة والهزيمة وأصلحوا تقصيرهم ، وجاء القرآن مؤكِّداً لهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[1] .

لن تقوم للعرب قائمة اليوم ما داموا متفرقين متحزبين تسودهم الخلافات والعصبيات الجاهلية ، وقد هجمت الجيوش النصرانية قديماً على

---

(١) سورة آل عمران ١٣٩ .

بلادَ المسلمين وحال تمزقهم وتفرقهم واختلافهم فيما بينهم ، ولن يستعيدوا كيانهم وقوتهم إلا بوحدتهم الإيمانية .

جاء الصليبيون واحتلوا بيت المقدس وحال المسلمين الفرقة والتمزق ، وجثوا على صدورهم في بيت المقدس أكثر من تسعين عاماً ، فجاء صلاح الدين وجمع كيانهم وثقلهم العسكري والسياسي فصاروا أمة واحدة التقت الجيوش كلُّها تحت هدف واحد وقيادة إيمانية تؤثر الدين على كلِّ مصالحها ، وعندها ولّى النصارى هاربين .

واليوم لا قوة لنا إلا بالوحدة الإسلامية التي تنصهر بها الدعاوى المرجفة ، فلا قومية ، ولا حواجز مصطنعة بين الدول العربية ، فالكلُّ سواء ، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾[1] .

أسأل الله أن يصلح الأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين ، وأن يوحِّد صفهم ويجمع كلمتهم ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) المؤمنون : ٥٢ .

قائمة المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - أدب الدنيا والدين للماوردي ، دار الفكر ، تحقيق مصطفى السقا .

٣ - الإحاطة بأخبار غرناطة ، لسان الدين أبوعبدالله بن الخطيب ، تحقيق محمد عنان ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

٤ - الأحكام السلطانية ، للماوردي ، بيروت ، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

٥ - أزهار الرياض في أخبار عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري ، تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ .

٦ - الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي القاهرة ، ١٩٥٠م .

٧ - الإسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينى ، ترجمة د .نبيل صبحي ، بيروت ، ١٩٦٩م .

٨ - البداية والنهاية ، لابن كثير الدمشقي ، بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٦٦م .

٩ - التاريخ الأندلسي ، تأليف د .عبدالرحمن علي الحجي ، دار القلم ، دمشق ط٥ ، ١٤١٨ .

١٠ - تاريخ الإسلام السياسي ، د .حسن إبراهيم حسن ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩ .

١١ - تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ، د .عبدالمجيد نعني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦م .

١٢ - حاضر العالم الإسلامي ، محمود شاكر ، نشر المكتب الإسلامي ، ١٤١١ ، بيروت .

١٣ - حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمة من الفرنسية : عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٦٤م .
١٤ - الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة د .حسن إبراهيم والدكتور عبدالمجيد عابد ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
١٥ - دول الطوائف ، محمد عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ .
١٦ - دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبدالله عنان ط٤ ، المؤسسة السعودية بمصر ١٤١٧هـ .
١٧ - ديوان ابن عباد ، ط البابي الحلبي .
١٨ - ديوان شوقي ، أحمد شوقي ، دار المعرفة ، بيروت .
١٩ - السلطان محمد الفاتح ، الدكتور عبدالسلام فهمي ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧-١٩٨٧ .
٢٠ - سنن أبي داود دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢١ - سنن الترمذي ، لأبي عيسى الترمذي ، دار الفكر ، بيروت .
٢٢ - شمس العرب تسطع على الغرب ، المستشرقة الألمانية سيجريد هونكي .
٢٣ - شروط النهضة ، مالك بن نبي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .
٢٤ - السيرة النبوية لابن هشام ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
٢٥ - السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ، للدكتور محمد أبوشهبة ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٨-١٩٩٨ .
٢٦ - صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر ، بيروت .
٢٧ - عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة د .سليمان الطماوي دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٦م .

قائمة المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - أدب الدنيا والدين للماوردي ، دار الفكر ، تحقيق مصطفى السقا .

٣ - الإحاطة بأخبار غرناطة ، لسان الدين أبوعبدالله بن الخطيب ، تحقيق محمد عنان ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

٤ - الأحكام السلطانية ، للماوردي ، بيروت ، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

٥ - أزهار الرياض في أخبار عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري ، تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ .

٦ - الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي القاهرة ، ١٩٥٠م .

٧ - الإسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد تويني ، ترجمة د .نبيل صبحي ، بيروت ، ١٩٦٩م .

٨ - البداية والنهاية ، لابن كثير الدمشقي ، بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٦٦م .

٩ - التاريخ الأندلسي ، تأليف د .عبدالرحمن علي الحجي ، دار القلم ، دمشق ط٥ ، ١٤١٨ .

١٠ - تاريخ الإسلام السياسي ، د .حسن إبراهيم حسن ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩ .

١١ - تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ، د .عبدالمجيد نعني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦م .

١٢ - حاضر العالم الإسلامي ، محمود شاكر ، نشر المكتب الإسلامي ، ١٤١١ ، بيروت .

١٣ - حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمة من الفرنسية : عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٦٤م .
١٤ - الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة د .حسن إبراهيم والدكتور عبدالمجيد عابد ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
١٥ - دول الطوائف ، محمد عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ .
١٦ - دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبدالله عنان ط٤ ، المؤسسة السعودية بمصر ١٤١٧هـ .
١٧ - ديوان ابن عباد ، ط البابي الحلبي .
١٨ - ديوان شوقي ، أحمد شوقي ، دار المعرفة ، بيروت .
١٩ - السلطان محمد الفاتح ، الدكتور عبدالسلام فهمي ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٧-١٩٨٧ .
٢٠ - سنن أبي داود دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢١ - سنن الترمذي ، لأبي عيسى الترمذي ، دار الفكر ، بيروت .
٢٢ - شمس العرب تسطع على الغرب ، المستشرقة الألمانية سيجريد هونكي .
٢٣ - شروط النهضة ، مالك بن نبي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .
٢٤ - السيرة النبوية لابن هشام ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
٢٥ - السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ، للدكتور محمد أبوشهبة ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٨-١٩٩٨ .
٢٦ - صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر ، بيروت .
٢٧ - عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة د .سليمان الطماوي دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٦م .

٢٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت .
٢٩ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .
٣٠ - الكامل في التاريخ ، أبوالحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري ، بيروت ، ١٩٦٥م .
٣١ - مجموع الفتاوي ، لابن تيمية ، توزيع إدارة الإفتاء والدعوة والإرشاد ، السعودية .
٣٢ - مختصر تاريخ العرب ، محمد كرد علي ، البابي الحلبي .
٣٣ - مجلة المجتمع العدد ١١٠٦ .
٣٤ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٣٥ - المسلمون وقضية فلسطين ، أبوالحسن الندوي ، دار القلم ، الكويت .
٣٦ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م .
٣٧ - مقدمة ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٧م .
٣٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٢ .
٣٩ - نزيف العقول البشرية ، د .محمد عبدالعليم مرسي ، عالم الكتب الرياض ، ١٤٠٢هـ .
٤٠ - نهاية الأندلس ، محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٣٦٨هـ .

٤١ – النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير الجزري ، دار الفكر بيروت .
٤٢ – نهاية ملوك الطوائف محمد عبدالله عنان ، القاهرة .
٤٣ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨م .
٤٤ – هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، تأليف الدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، الدار السعودية ، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
٤٥ – واقعنا المعاصر ، للأستاذ محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، السعودية ، ١٤٠٨هـ .
٤٦ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبوالعباس أحمد بن محمد بن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٦م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١٤٣	الفصل الخامس : الخطر الصليبي ....
١٤٦	بداية الهجمات الصليبية العسكرية ....
١٥٠	الخيانة الكبرى من بعض ملوك المسلمين ....
١٥٨	المأساة المفجعة ....
١٥٩	أبيات مؤثرة لشوقي في وصف خروج المسلمين من الأندلس ....
١٦١	فضيحة النصارى في معاملة المسلمين ....
١٦٩	خاتمة ....

هذا الكتاب

جاء هذا الكتاب تقريرا كاملاً بحث في أسباب سقوط الأندلس وغروب شمس الإسلام عنها بعد أن شيد المسلمون فيها حضارة استمرت ثمانية قرون، لولاها لظلت أوربا تسبح في بحار جهلها.

وقد كُتب هذا البحث ليكون تبصرةً للأمة الاسلامية في زمن تحالفت فيه قوى الكفر لضرب الأمة الإسلامية والسيطرة على ممتلكاتها وخيراتها وطمس هويتها وانتمائها الإسلامي.

يقول الداعية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

((إني أنظر الآن، فأجد المسلمين تنزل بهم النكبات التي تقصم الظهر ثم تنتهي بغير شيء! لم؟

مأساة الأندلس التعليق عليها قصيدة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان

هل هذا هو التعليق؟

أين تعليق العلماء والأمراء والساسة والقادة، والنظر في هذا كله نظرة محاسبة للنفس؟..

إذا أفلست شركة مثلاً فإن التقرير يوضع عن أسباب الإفلاس، فكيف لم توضع أي تقارير عن فساد الأمة الإسلامية الذي أدى إلى هزيمتها في الأندلس))

أسأل الله عز وجل أن تكون هذه الدراسة عاصماً من السقوط لأمتي المجيدة التي ملكت الدنيا من مشرقها إلى مغربها عندما قام الأجداد بنشر دين الله في أرجاء المعمورة حباً وإخلاصاً لدينهم، وإشفاقاً على البشرية من نار الآخرة.

نشر وتوزيع

مكتبة دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت - حولي - شارع المثنى قرب مطعم الجولان

هاتف وفاكس: ٢٦١٦٤٩٠ - ص.ب: ٧٠٩٧ حولي - الرمز البريدي: 32091